كمال الصليبي

البحث عن يسوع

قراءة جديدة في الأناجيل





كمال الصَّليبي

البحث عن يسوع

قراءة جديدة في الأناجيل

المحتويات

مدخل

يمثّل هذا الكتاب محاولة للوقوف على الحقيقة التاريخية بشأن يسوع النّاصري المعروف بالمسيح، وذلك عن طريق قراءة دقيقة لما تقوله النّصوص المقدّسة لدى المسيحيّين بشأنه. وقد درج علماء «الكتاب المقدّس» بين المسيحيّين على القراءة النقديّة لهذه النصوص منذ أكثر مِن قرنين. ومِن هؤلاء مَن كان مِن رجال الدين البارزين. وكانت الكنائس المسيحيّة في البداية تعارض، وبشدّة، هذا «النقد الكتابي» (كما يسمّى). لكنّ الكبرى منها ما لبثت أنْ أقرّت بشرعيته، نظراً إلى استحالة العكس، فوجدت طريقها للتعايش معه. ومن ذلك الفصل في بعض الكنائس البروتستانتيّة بين ما يسمّى «مسيح التاريخ» و «مسيح الإيمان.»

ومن «النقد الكتابي» ما يتعلّق بالتدقيق في النصوص من حيث تركيبها، لغةً وأسلوباً. وهو ما يسمّى «النقد النصّي.» ومنه ما يتعلق بمقابلة ما تفيده هذه النصوص، إذا ما قُرئت بدّقة، مع ما هو معروف من واقع التاريخ. وهو ما يسمّى «النقد التاريخي،» أو «النقد الأعلى.» وهذان النوعان من «النقد

الكتابي» مرتبطان أحدهما بالآخر بحيث يستحيل الفصل بينهما تماماً.

وليس في هذا الكتاب من جديد من حيث الأسلوب الذي يتّبعه في «النقد الكتابي.» إنّما الجديد فيه هو الأطروحة العامّة التي يتقدّم بها، وهي التي تذهب إلى أبعد من الآراء المألوفة بشأن يسوع النّاصري كشخصيّة من التاريخ، وبشأن الظروف المحيطة بسيرته وما لهذه الظروف من خلفيّات. ومن هذه الخلفيّات ما يعود إلى زمن سبي إسرائيل في بلاد بابل، أي إلى القرن السادس قبل الميلاد، إنْ لم يكن إلى زمن أسبق.

ومن المعروف عن النصوص المقدّسة لدى المسيحيّين أنّها كثيراً ما تتناقض مع بعضها فيما تقوله أو تفيده عن يسوع. ومن هذا التناقض حتى ما هو قائم بين المقطع والمقطع من النصّ الواحد. غير أنَّ في هذا التناقض بالذات - سواءً أكان بين النصّ والآخر، أم داخل النصّ الواحد - ما يوفّر للباحث السبيل إلى فرز المقولات الواردة في هذه النصوص بعضها عن بعض، وإرجاع كلّ مقولة إلى أصلها، يقيناً أو ترجيحاً. إذ ما من تناقض بين المقولة والأخرى إلاّ وله سبب، والوقوف على حقيقة الأسباب لما في النصوص التي نحن بصددها من تناقض قد يكون هو المفتاح لحلّ اللّغز الذي ما زال قائماً بشأن يسوع، سواءً من ناحية تاريخيّة شخصه، أو من ناحية المعتقد المسيحي فيه.

وقد قيل إنّ للعقل ألف عين، بينما للقلب عين واحدة. والألف عين التي للعقل هي، مجازاً، تلك التي تنظر في ما يُرى من واقع الطبيعة والتاريخ. أي أنّها عيون المعرفة التي قد يتوصّل إليها

الإنسان عن طريق البحث المرتكز إلى الدليل والبرهان. أمّا العين الواحدة التي للقلب فهي، مجازاً أيضاً، تلك التي تُدرك ما لا يُرى من الحقيقة عن طريق اليقين الذي لا حاجة له إلى دليل أو برهان. ولعيون العقل الكثيرة حقّها في النظر والتدقيق في كلّ ما يُرى من الحقائق، بل وأنْ تذهب في ذلك إلى أبعد الحدود الممكنة. لكنْ يبقى الواقع، وهو أنّ للمعارف، مهما توسعت أفاقها، حدوداً لا يمكن للعقل البشري أنْ يتخطّاها. ولذلك، لا يجوز للعقل، مهما كثرت عيونه، أنْ ينكر على القلب حقّه في رؤية الحقائق المتعلقة بما وراء الكون عن طريق عينه الواحدة التي هي عين الإدراك واليقين. فإذا فعل ذلك، يكون قد تجاوز حدوده.

١
معلومات عامّة

يتألّف «الكتاب المقدّس» لدى المسيحيّين ممّا يسمّونه «العهد القديم» و «العهد الجديد»: الأوّل يحتوي على ما يشترك المسيحيّون واليهود في تقديسه من أسفار كُتبت أصلاً باللغة العبريّة، والثاني يحتوي على ما يقدّسه المسيحيّون دون اليهود من نصوص كُتبت أصلاً باللّغة اليونانيّة.

و «العهد القديم» يتألّف من أسفار «التوراة» (أي «التعليم» أو «الشريعة»)، وهي خمسة (التكوين، الخروج، اللاويّين، العدد، والتثنية، وجميعها ينسب إلى موسى)، وأسفار «الأنبياء» (بما فيها الأسفار التاريخيّة المضمون)، وهي واحد وعشرون (يشوع، القضاة، صموئيل الأوّل والثاني، الملوك الأوّل والثاني، إشَعياء، إرمِيا، حزقيال، هوشع، يوئيل، عاموس، عوبديا، يونان، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفنيا، حَجَّي، زكريّا، وملاخي)، والأسفار التاريخيّة والأدبيّة والتأمليّة المسمّاة أسفار «الكتب،» وهي ثلاثة

عشر (أخبار الأيّام الأوّل والثاني، المزامير، أيّوب، الأمثال، راعوث، نشيد الأنشاد، الجامعة، مراثي إرميا، إستير، دانيال، عزرا، ونحميا). وسوف نبقي في هذا الكتاب على تسمية هذه الاسفار مجتمعة بـ «العهد القديم» تسهيلاً، على كون هذه التسميّة تحمل مفهوماً لاهوتيّاً خاصاً بالمسيحيّة. («العهد القديم» بالنسبة إلى المسيحيّين، في المفهوم اللاّهوتي، هو الميثاق الذي حدّد العلاقة الخاصّة بين اللّه و«شعبه المختار» الذي هو شعب إسرائيل، وذلك على عكس «العهد الجديد» وهو الذي جرى، في المفهوم اللاّهوتي المسيحي، بين اللّه والعالم أجمع، من خلال موت المسيح يسوع على الصليب ليفتدي البشر.)

أمّا «العهد الجديد» الذي هو الجزء الخاص بالمسيحيّين من «الكتاب المقدّس» فيتألف من أربعة أسفار تسمّى «الأناجيل» (المفرد باليونانيّة euangelion بمعنى «الخبر الجيّد» أي «البشارة»)، يليها سفر «أعمال الرُّسُل» ثم «الرّسائل» (ومجموعها واحد وعشرون رسالة، ثلاث عشرة منها بقلم الرّسول بولس)، وأخيراً سفر «رؤيا يوحنّا اللاّهوتي» الموجّه، هو أيضاً، على شكل رسالة من «يوحنّا إلى السّبع الكنائس التي في آسيا» (أي في بلاد الأناضول).

والأناجيل الأربعة من «العهد الجديد» تحمل أسماء اثنين من تلاميذ يسوع هما متّى ويوحنّا، واثنين من معاوني الرّسول بولس هما مرقس ولوقا. (وسوف نفترض أنّ كلاً من هؤلاء الأربعة هو الذي كتب الإنجيل المنسوب إليه تسهيلاً للأمور، حتى لو لم يكن ذلك صحيحاً). وموضوع هذه الأناجيل الأربعة هو سيرة يسوع،

يضاف إليها سفر «أعمال الرُّسُل» الذي يتحدّث عن أحوال تلاميذ يسوع وأفعالهم من بعده. والواضح أنّ سفر «أعمال الرُّسل» جاء من القلم نفسه الذي صدر عنه إنجيل لوقا، وهو الموجّه على شكل رسالة إلى «العزيز ثاوفيلُس،» كما هو الواقع بالنسبة إلى سفر «أعمال الرُّسل» حيث المقدّمة تقول: «الكلام الأول أنشأته يا ثاوفيلُس عن جميع ما ابتدأ يسوع يفعله ويُعلّم به إلى اليوم الذي ارتفع فيه.» ثم ينتقل الكلام إلى ما حصل لرُسُل يسوع من بعده. والرأي السائد بين علماء « العهد الجديد» اليوم أنّ كتابة الأناجيل الأربعة ابتدأت قبل العام ٧٠ للميلاد بقليل، وانتهت مع نهاية القرن الميلادي الأوّل أو بداية الثاني. ومن العلماء من يعتبر إنجيل مرقس أقدمها، ومنهم من يعتبر أنّ من محتويات إنجيل يوحنّا ما هو أقدم من إنجيل مرقس، ممّا يعني أنّ نصّاً بدائيّاً من إنجيل يوحنّا كُتب أصلاً قبل إنجيل مرقس، ثمّ أعيدت كتابة هذا الإنجيل مع إضافات إليه في وقت لاحق.

ويُجمِع العلماء أيضاً على كون رسائل بولس – وهي التي جاءت من قلمه، معظمها في الأقل – هي أقدم من أيٍّ من الأناجيل، نظراً إلى أنّ بولس توفّي في العام ٦٧م تقريباً. والرأي السائد بشأن هذه الرّسائل هو أنّ تلك الموجّهة منها إلى أهل رومية (أي روما، وهي رسالة واحدة) وإلى أهل غلاطية (وهي أيضاً رسالة واحدة) وإلى أهل كورنثوس (وهما رسالتان) لا مجال للشكّ في أصالتها. أمّا ما تبقىّ منها (الرّسائل إلى أهل أَفَسُس، وفيليبّي، وكولوسّي، والرّسالتان إلى أهل تسالونيكي، والرّسالتان إلى تيموثاوس، والرّسالتان الموجّهتان واحدة إلى

تيطس، والثانية إلى فليمون)، فمن محتوياتها ما هو أصيل، ومنها ما قد يكون مضافاً إلى الأصل لاحقاً عن طريق التحرير. والأصيل منها هو، على كلّ حال، أكثر من الإضافات.

أما بالنسبة إلى بقيّة «الرّسائل» من «العهد الجديد،» فاثنتان منها منسوبتان إلى أخوين من أُخوة يسوع (واحدة إلى أخيه يعقوب، والأخرى إلى أخيه يهوذا)، واثنتان إلى تلميذه بطرس، وثلاث إلى تلميذه يوحنّا، وواحدة موجّهة إلى «العبرانيّين» من دون ذكر لاسم صاحبها. وللعلماء شكوك بأنّ الرسائل المنسوبة إلى يعقوب، ويهوذا، وبطرس، ويوحنّا جاءت بالفعل من أقلامهم.

رسائل بولس، إذن، هي أهمّ المصادر التي لدينا للبحث عن حقيقة يسوع. تأتي بعدها الأناجيل الأربعة. أضف إلى ذلك الإشارات العابرة إلى يسوع، أو إلى أفراد آخرين من أُسرته، أو إلى تلاميذه، في كتابات المؤرّخ اليهودي يوسيفُس الذي عاصر المتأخرّين من الرُّسل (توفّي ١٠٠م تقريباً)، أو في المقتبسات التي نقلها المؤرّخ الكنسي يوسابيوس القيسري (توفّي ٣٣٩م تقريباً) عن «المذكرات» التي وضعها المدعو هغسِبّوس Hegesippos خلال النصف الأوّل من القرن الميلادي الثاني. وأهمّ ما في هذا القليل الذي قيل عن يسوع خارج «العهد الجديد» أنّه يُثبت تاريخيّة شخصه. وأهمّ ما في «التَّلْمُود» اليهودي بشأن يسوع هو إثباتُه لاسمِه على كونه بالأراميّة «يشوع.»

وتوجد خارج «العهد الجديد» مجموعة من الأناجيل والرّسائل، كلّ منها منسوب إلى واحد أو آخر من الرُّسل، رفض آباء الكنيسة قبولها لاعتبارهم إيّاها «باطنيّة» (باللاّتينية apocrypha من

اليونانيّة apokruphos بمعنى «غامض» أو «خفيّ»). والواقع هو أنّ هذه الأناجيل والرسائل المرفوضة كانت تخصّ فِرَقاً من المسيحيّين «الباطنيّين» (إذا صحّ التعبير) ظهرت بين القرنين الأوّل والرّابع للميلاد. وما لبثت هذه الفِرَق أنْ اضمحلّت. وليس بين الأناجيل والرّسائل التي كانت لهذه الفِرَق ما هو أقدم من محتويات «العهد الجديد،» أو حتى بقِدمها. وقد درج العلماء على اعتماد هذه الأناجيل والرّسائل كمصدر لتاريخ البدع المسيحيّة القديمة، لكنْ لا يجوز اعتبار أيٍّ منها مصدراً أصيلاً أو صالحاً يُعتمد عليه للوقوف على الحقيقة التاريخيّة بشأن يسوع.

ومن العلماء من كان يأمل في العثور على معلومات من «مخطوطات البحر الميت» تساعد في حلّ اللّغز التاريخي بشأن يسوع، لكون تاريخ هذه المخطوطات يعود إلى ما قبل زمن يسوع بنحو قرن، وإلى ما بعده بنحو قرن. لكنّ الواقع هو أنّه لم يُعثر حتى الآن على أيّ ذكر ليسوع، أو إشارة ولو خفيّة إليه، في أيٍّ من هذه المخطوطات. بل جُلّ ما وجد فيها هو إشارات إلى تعاليم ومفاهيم باطنيّة رأى فيها بعض العلماء شبهاً بتعاليم «العهد الجديد» ومفاهيمه. ورأيهم في ذلك يظلّ موضع جدل.

يبقى أهمّ ما في الأمر، وهو أنّ «العهد الجديد» يبشّر بيسوع على أنّه «المسيح» الذي يرد التنبوّء بمجيئه مُخلّصاً لبني إسرائيل في عدد من أسفار «العهد القديم،» وخاصّة في أسفار «الأنبياء.» ومن الأناجيل ما يأتي باقتباسات من «العهد القديم» ليقيم البرهان على أنّ يسوع ما هو إلاّ هذا «المسيح» بالذات. والواقع هو أنّ قصّة «المسيح» يسوع لا تبدأ بولادته، أو ببداية دعوته، إذ

إنّ أصولها تعود إلى الزمن الذي كان بنو إسرائيل مسبيّين فيه في بابل. ولذلك، فعلينا أنْ نبدأ بالبحث عن الخلفيات لقصّة يسوع في بابل، ممّا يضطرّنا إلى العودة إلى «العهد القديم،» فنتفحّص ما فيه من مادّة بهذا الشأن.

ولا بدّ من الملاحظة أنّ البحث في الموضوع الذي نحن بصدده لا يجوز أنْ يعتمد على نصوص «العهد القديم» و «العهد الجديد» إلاّ في اللّغة الأصليّة، وهي العبريّة (عدا بعض المقاطع الأراميّة) بالنسبة إلى «العهد القديم،» واليونانيّة بالنسبة إلى «العهد الجديد.» إذ إنّ في «العهد القديم،» وكذلك في «العهد الجديد،» مقاطع قابلة للفهم على أكثر من وجه، وأخرى استوجبت الاجتهاد في ترجمتها لاعتبارها غامضة. ومن الضروري، في مثل هذه الأحوال، أنْ يُثبت النصّ، أو الكلمة المستعصية منه في الأقلّ، بالشكل الأصليّ، ثُمّ الاجتهاد بشأنه على هذا الأساس.

تبقى ضرورة الإشارة إلى أنّ الاقتباسات من «الكتاب المقدّس» في البحث الحالي سوف تُؤخذ من الترجمة العربيّة له المعروفة بـ «الأميركية،» لأنّ العمل عليها جرى في بيروت في القرن التاسع عشر تحت إشراف المُرسَلين الأميركيّين. والترجمة هذه هي أوسع الترجمات لِـ «الكتاب المقدّس» انتشاراً، إضافةً إلى كونها الترجمة التي ما زالت معتمدة من معظم الكنائس الإنجيليّة في العالم العربي. والترجمة هذه أُخذت عن النصوص الأصليّة لِـ «الكتاب المقدّس.» أما الترجمة الإنجيليّة الحديثة، فقد اعتمدت ليس على الأصل العبري والأرامي، أو اليوناني، بل على المقابلة بين عدّة ترجمات إنكليزيّة للأصل، ولذلك لا يمكنني أنْ أنصح بالعودة إليها.

٢

البداية في بابل

في العام ٥٨٦ ق م تقريباً، قضى الملك نبوخذناصّر البابلي على مملكة يهوذا (وفي يقيني أن مركزها كان في سراة عسير، إلى الجنوب من الحجاز)، فقبض على آخر ملوكها، وهو المدعو صدقيا، وأمر بقتل جميع أبنائه أمامه. ثم قُلعت عيناه، وقُيِّد بالسلاسل، واقتيد أسيراً إلى بابل حيث مات في أرض «لا يراها» (سفر الملوك الثاني ٢٥:٧؛ سفر حزقيال ١٢:١٣)، وهو عديم العقب.

وكان نبوخذناصّر قد قدم إلى بلاد يهوذا سابقاً (في العام ٥٩٧ ق م تقريباً)، فخلع ملكها يهوياكين عن عرشه، ونصّب عمّه صدقيا مكانه. ثم اقتاد يهوياكين إلى بابل ووضعه في السجن، وسبى معه جميع أفراد عائلته، وكذلك معظم أعيان مملكة يهوذا وأرباب الصناعة والمهارات فيها، بحيث لم يبق في البلاد الاّ «مساكين شعب الأرض» (سفر الملوك الثاني ٢٤:١٤).

كان يهوياكين في ذلك الوقت في الثامنة عشرة من العمر. وبعد سبعة وثلاثين عاماً من أسره، أي في العام ٥٦٠ ق م تقريباً، توفّي نبوخذناصّر، فبادر خلفه أويل مردوخ الى إخراج يهوياكين من السجن، وبالغ في إكرامه، جاعلاً له مرتّباً يوميّاً بقي يتسلّمه حتى آخر حياته (سفر الملوك الثاني ٢٥: ٢٧–٣٠).

وبعد وفاة صدقيا في السجن، بقي يهوياكين وحده صاحب الحقّ في المُطالبة بعرش يهوذا. ثم توفّي يهوياكين، فصار الذكور من ذريّته في بابل يتوارثون هذا الحقّ بكراً عن بكر، من دون أنْ يكون لهم منافس. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ مُؤسِّس مملكة يهوذا هو الملك داود: أسّسها في العام ١٠٠٥ق م تقريباً، ثم ضمّ إليها ما تبقّى من بلاد بني اسرائيل حتى جعلها مملكة «كلّ اسرائيل،» وهي المملكة التي أورثها إلى ابنه سليمان (قرابة ٩٦٤–٩٢٤ ق م). وبعد وفاة سليمان قامت سلالات أُخرى تتحكّم بالأراضي الإسرائيلية التي ضُمّت إلى مملكة يهوذا في عهد داود، جاعلةً من هذه الأراضي مملكةً أُخرى سمّيت «مملكة اسرائيل.» وبعد قضاء ملوك أشور على هذه المملكة عام ٧٢١ ق م تقريباً، وتشتيت سكّانها، لم يبقَ لبني اسرائيل الاّ مملكة يهوذا، وملوكها من سلالة داود الذين أصبحوا، من ثَمّ، هم وحدهم ملوك اسرائيل. وبذلك، وبعد سبي يهوذا، أصبحت المُطالبة بعرش داود لا تقتصر على يهوذا، بل تشمل كامل اسرائيل.

ودرجت العادة لدى بني إسرائيل منذ بداية المُلك عندهم بأنْ يُكرّس كلّ واحد من ملوكهم لخدمة اللّه عند تبوّئه العرش عن طريق مسح رأسه بالدهن، بحيث يصبح «مسيحاً للرب.» ولذلك أصبح لقب

«المسيح» يُطلق على ملوك اسرائيل، وخاصةً ملوك يهوذا من سلالة داود. وبعد زوال مملكة يهوذا، أصبح كلّ واحد من المُطالبين بعرش داود، في نظر أتباعه في الأقلّ، مسيحاً منتظراً تُعقد حوله الآمال لإحياء المُلك الإسرائيلي الضائع. وثمّة ما يشير إلى أنّ المُطالب بعرش إسرائيل كان يُطلق عليه لقب «نَسِيء» بمعنى «رئيس» أو «أمير» (أنظر، مثلاً، النصّ العبري لسفر حزقيال ٣٤:٢٤؛ ٣٧:٢٥؛ ٤٤:٣؛ ٤٨:٢٢).

وهكذا نشأت في بابل، بعد وفاة الملك يهوياكين، سلالة من «الأمراء» المُطالبين بعرش يهوذا، من ذريّته، هي أشبه ما تكون بسلالة الأئمة من ذريّة علي بن أبي طالب، في تاريخ الإسلام. وقد كان كلّ واحد من هؤلاء « الأمراء » يُعتبر في زمانه، وإلى حدّ ما في الأقل، مسيحاً منتظراً، ولكلّ منهم الحقّ بأنْ يعتبر نفسه «ابن داود» نسبة إلى جدّه الأعلى. وكان أوّل من اشتهر من هؤلاء في بابل سليل ليهوياكين عُرف باسم «زَرُبّابل بن شَألتِيئِيل» نسبةً إلى حفيد ليهوياكين اسمه شألتِيئِيل (سفر أخبار الأيام الأوّل٣:١٦–١٩، حيث النص العبري مشوّش، وربّما عن قصد). ولعلّ زَرُبّابل، ربّما بمعنى «سجين بابل» كان لقباً وليس اسماً أصليّاً للمذكور.

وحدث في زمن زَرُبّابل أنْ قضى قورش الثاني ملك فارس على مملكة بابل واحتلّ أراضيها، بما في ذلك أرض يهوذا فيما أصبح يعرف بولاية « عبر نهرا » (أي عبر نهر الفرات، أنظر سفر عزرا ٨:٣٦، وسفر نحميا ٢:٧، ٩؛ ٣:٧). وما أنْ تمّ لقورش هذا الفتوح حتى أصدر نداءً بالكتابة قائلاً (سفر عزرا ١:٢–٤):

> جميع ممالك الأرض دفعها لي الربّ إله السماء، وهو أوصاني بأن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا. من منكم من كلّ شعبه [قادر] ليكن إلههُ معه ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا فيبني بيت الربّ إله إسرائيل. هو الإله الذي في أورشليم. وكلّ من بقي في أحد الأماكن حيث هو متغرِّب، فلينجده أهل مكانه بفضّة وبذهب وبأمتعة وببهائم مع التبرّع لبيت الربّ الذي في أورشليم.

وكان زَرُبّابل، وهو «الأمير» الداودي المعترف به في صفوف شعب يهوذا في زمانه، أوّل من لبّى نداء الملك قورش. ولعلّه اعتبر هذا النداء فاتحة خير لعودة مُلك داود إلى بلاد يهوذا المنكوبة. فقام – هو وعشرة من كبار معاونيه – بجمع ٤٢,٣٦٠ فرداً من شعب يهوذا المقيم في بابل، فضلاً عن العبيد والإماء، وعاد بهم إلى أرض يهوذا مشياً على الأقدام، أو ركوباً على الخيل والبغال والجمال والحمير (سفر عزرا ٢:٢، ٦٤–٦٧). وعند الوصول إلى أورشليم، تبرّع الميسورون من رؤساء الأُسر العائدة بما يلزم لإعادة بناء «بيت الرب» في مكانه، فكان مجموع التبرّعات ٦١,٠٠٠ «درهم من الذهب،» و٥,٠٠٠ «مَناً من الفضّة،» و«مئة قميص للكهنة» (سفر عزرا ٢:٦٨–٦٩). وبعد ذلك توزّع العائدون على مدنهم الأصليّة (سفر عزرا ٢:٧٠)، وبقي زَرُبّابل، على ما يبدو، في أورشليم ليهتمّ بإعادة بناء « بيت الربّ» هناك، وبرفقته يهوشع بن يهوصادق (ويُكتب الاسم أيضاً «يهوصاداق»

و«يوصاداق»)، كبير الكهنة، وفريق من الكهنة المعاونين (سفر عزرا ٣:١).

ويُستدرك، بالمناسبة، أنّ الأُسر الإسرائيلية التي عادت إلى أرض يهوذا بقيادة زَرُبّابل – مثلها مثل الشعب الأصلي لمملكة يهوذا – كانت تتألّف من ثلاثة عناصر، كلٌّ منها يمثّل سبطاً من أسباط بني إسرائيل. فمن العائدين من كان ينتمي إلى سبط يهوذا، الذي منه زَرُبّابل وسائر بيت داود. ومنهم من كان ينتمي إلى سبط بنيامين. وبين هؤلاء وبيت داود خلاف قديم يعود عهده إلى الزمن الذي خرجِ فيه داود عن طاعة شاوُل البنياميني، أوّل ملوك إسرائيل، ثم نُصّب ملكاً على سبط يهوذا بعد وفاة شاوُل (سفر صموئيل الثاني ٢:٤)، وحارب بيت شاوُل «سبع سنين وستة أشهر» (سفر صموئيل الثاني ٣:١ ؛ ٥:٥) حتى أخضعه وقضى على من تبقّى منه، فأصبح، من ثَمّ، ملكاً على كلّ إسرائيل (سفر صموئيل الثاني ٥:١–٣)، وسبط بنيامين في الجملة، وعلى مضض متواصل. أمّا العنصر الثالث من شعب يهوذا العائد إلى وطنه، فكان انتماؤه إلى سبط لاوي الذي منه الكهنة من بيت هارون.

ولا بدّ من استدراك آخر بشأن فريق الكهنة من هذا السبط. لم يكن لبني إسرائيل في البداية نظام خاص لعبادة الربّ يهوه. بل «كان كلّ واحد يعمل ما يحسن في عينيه» (سفر القضاة ١٧:٦). غير أنّ سبط لاوي كان يُعتبر مؤهّلاً بشكل خاص للاهتمام بشؤون هذه العبادة، وذلك منذ وقت مبكّر: يقوم

المؤهّلون من هذا السبط بعرض خدماتهم الكهنوتيّة على رؤساء العشائر الإسرائيلية من سائر الأسباط لقاء أجر، فيجري الاتفاق بين الكاهن والعشيرة على هذا الأساس (أنظر، مثلاً، سفر القضاة ١٧:٧-١٣). وما لبث الكهنوت في إسرائيل أنْ أخذ ينحصر في بيت واحد من سبط لاوي، هو بيت هارون ابن عمران (بالشكل العبري «عمرم»). ومن المفترض أنّ هارون ابن عمران كان أخاً لموسى، وأنّ موسى جعل منه أوّل كاهن على إسرائيل. وفي وقتٍ ما قبيل قيام مملكة إسرائيل، كان عظيم الكهنة من بيت هارون ابن عمران رجلاً يدعى عالي. ومن سلالة عالي هذا رجل يدعى أبياثار: لحق بداود بعد خروجه على الملك شاوُل، فعيّنه داود كاهناً أعظم على إسرائيل عندما أصبح ملكاً.

وكانت لدى داود مخاوف من تعاظم نفوذ الكاهن الأعظم الهاروني النسب في مملكته، على ما يبدو، فبادر إلى تعيين كاهنين، وليس كاهناً واحداً، لهذا المنصب البالغ الحساسيّة. وكان الكاهن الأعظم الثاني الذي عيّنه رجلاً غير معروف النسب اسمه صادوق بن أخيطوب (سفر صموئيل الثاني ١٧:٨). بل إنّ داود ذهب إلى أبعد من ذلك، فأدخل أبناءه في سلك الكهنوت (سفر صموئيل الثاني ١٨:٨).

يضاف إلى ذلك أنّ داود لم يعتمد على الكهنة وحدهم في الشأن الديني، بل جعل لهم من «الأنبياء» منافسين في هذا المجال. إذ إنّه اتّخذ اثنين من هؤلاء الأنبياء - ناثان وجاد - مستشارَين له: ناثان بصفة مرشد ديني (سفر صموئيل الثاني، الإصحاحان ٧ و ١٢)، وجاد بصفة «رائي» (سفر صموئيل الثاني

١١:٢٤). والأنبياء من أمثال ناثان وجاد كانوا ينطقون باسم الربّ يهوه، ويبادرون إلى حلّ مشاكل الناس على أساس ما يوحى إليهم من شريعة، ومن ثَمّ يتمتّعون بنفوذ واسع نابع من الاعتراف الشعبي بهم كقادة للمجتمع. وذلك على عكس الكهنة الذين كانت مهمّاتهم تقتصر على الاهتمام بِـ «تابوت العهد» (الذي هو مسكن الربّ يهوه) في قدس أقداس الهيكل، بما في ذلك سقاية هذا التابوت، وترؤّس الخدمات الدينيّة العامّة التي تقدّم فيها الذبائح ليهوه، وصرف المؤمنين عند نهاية الخدمة بالبركة الآتية: «يباركك الربّ ويحرسك؛ يضيء الربّ بوجهه عليك ويرحمك؛ يرفع الربّ وجهه عليك ويمنحك سلاماً» (سفر العدد ٦:٢٤–٢٦).

ومن خلال هذه التنظيمات التي أدخلها داود على المؤسّسة الدينيّة في مملكته، أصبح الكهنوت في إسرائيل خاضعاً تماماً لمشيئة العرش، ولم يعد له استقلال يُذكر في التصرّف. وعندما شاخ داود وأشرف على الموت، وبدأ ابناه أدونيّا (وهو الأكبر) وسليمان (وهو الأصغر منه) يتنافسان على خلافته، انتصر الكاهن الهاروني أبياثار لأدونيّا، في حين انتصر الكاهن صادوق، وهو غير الهاروني الأصل، لسليمان، يسانده في ذلك النبي ناثان. وكان سليمان هو الغالب. وما أنْ تمّت له الغلبة وجلس على عرش أبيه حتى أمر بقتل أخيه أدونيّا، ثُمّ عزل أبياثار نصير أدونيّا عن الكهنوت، وأرسله إلى المنفى (سفر الملوك الأوّل ٢:٢٤–٢٦). وبذلك انتهى الكهنوت «العالَوي» الهاروني الأصل في إسرائيل، وحلّ مكانه الكهنوت الصادوقي. وشرعية هذا الكهنوت مستمدّة من

العرش الداودي، وليس من أيّ مصدر آخر.

وبقي الكهنة من سلالة صادوق يتعاقبون على رئاسة المؤسّسة الدينيّة الإسرائيلية بعد وفاة سليمان، وتحديداً في مملكة يهوذا، وهم يخضعون أكثر فأكثر للعرش بسبب الشكّ الشعبي في شرعيّة مكانتهم. ولعلّ منهم من حاول أنْ ينسب الأُسرة الصادوقيّة إلى هارون باجتهاد أو بآخر، فلم يلقَ اجتهاده قبولاً. واستمرّ الكهنوت الصادوقي في يهوذا على هذه الحال حتى زمن الملك يوشيّا (٦٤٢-٦١١ ق م تقريباً). وكانت أحوال المملكة قد بدأت تتضعضع منذ فترة، فأفسح ذلك في المجال لتدخّل الكهنوت الصادوقي في الشأن العام، وعلى نطاق واسع للمرّة الأولى، وذلك بطرح مبادرة لنظام ديني في المملكة يكون صنواً للنظام السياسي والإداري فيها. ففي العام الثامن عشر من ملك يوشيّا (أي في العام ٦٢٤ ق م تقريباً)، وفي حين كان «النجّارون والبنّاؤون والنحّاتون» يقومون بورشة صيانة وترميم في الهيكل بأورشليم، حيث «تابوت العهد،» أعلن الكاهن الأعظم حلقيا عن العثور على «سفر الشريعة» (أي صحف موسى) في مخبأ داخل الهيكل (سفر الملوك الثاني ٢٢:٨). وجيء بهذا السفر إلى الملك يوشيّا، فجمع «كلّ شيوخ يهوذا وأورشليم» إلى الهيكل، «وكلّ الشعب من الصغير إلى الكبير، وقرأ في آذانهم كلّ كلام سفر الشريعة الذي وُجد في بيت الربّ» (سفر الملوك الثاني ٢٣:١-٢). وبناءً على التعاليم الواردة في هذا السفر، أمر الملك بالاحتفال بعيد الفصح للمرّة الأولى حسب الأصول المرسومة لهذا العيد، إذ إنّه «لم يعمل مثل هذا الفصح منذ أيّام القضاة الذين

حكموا على إسرائيل، ولا في كلّ أيّام ملوك إسرائيل وملوك يهوذا» (سفر الملوك الثاني ٢١:٢٣). والاعتقاد السائد بين علماء «الكتاب المقدّس» هو أنّ «سفر الشريعة» الذي أعلن الكاهن حلقيا عن العثور عليه في ذلك الوقت ما هو الاّ سفر التثنية من التوراة، المنسوب إلى موسى؛ وأنّ هذا السفر، في الواقع، لم يعثر عليه في حينه، بل إنّ المؤسّسة الكهنوتيّة الصادوقيّة هي التي قامت بوضعه في السنوات السابقة للإعلان عن وجوده.

كانت هذه بداية ما يمكن تسميته منذ ذلك الوقت بـ «اليهوديّة» كنظام ديني قائم على شريعة مكتوبة وطقوس ثابتة، خلافاً لما كانت عليه العبادة الإسرائيلية التقليدية وغير المنتظمة للإله يهوه في السابق. وكان اسم «اليهود» (بالعبريّة «يهوديم»،) والمفرد «يهودي») قد بدأ يُطلق على شعب يهوذا (بالعبريّة «يهوده») في ذلك الوقت، وكذلك لفظة «اليهوديّة» (بالعبريّة «يهوديت») للدلالة على لغة يهوذا («يهوده») التي هي العبريّة (أنظر سفر الملوك الثاني ٢٦:١٨، ٢٨). ومن ذلك يأتي استعمال اسم «اليهود» (بالعبريّة «يهوديم») بمعنى الطائفة الدينيّة. وكان الرّسول بولس (توفّي عام ٦٧م تقريباً) أوّل من اشتقّ لفظة «اليهوديّة» (باليونانيّة Ioudaismos) من اسم « اليهود» (باليونانية Ioudaioi)، للدلالة على ديانتهم، على ما يظهر، وذلك في رسالته الشهيرة إلى أهل غلاطية (١٣:١، ١٤). ولا توجد أيّة إشارة معروفة إلى اسم لهذه الديانة من قبل.

وما كاد العام الثامن والثلاثون من إعلان الكاهن حلقيا عن اكتشاف «سفر الشريعة» يكتمل حتى تمّ القضاء على مملكة يهوذا

والعرش الداودي فيها، ولم يبقَ لشعبها من قيادة منظّمة إلاّ قيادة الكهنوت الصادوقي غير الشّرعي أصلاً، وهو الذي انتقل أربابه آنذاك مع السّبي من يهوذا إلى بابل. وكان في بابل أن أخذ الكهنة من آل صادوق، وأعوانهم من الكتبة، يغمزون أكثر فأكثر من قناة بيت داود، وهم يسعون جاهدين إلى تنظيم سبي يهوذا على أساس الشريعة، وليس على أي أساس آخر، ليحوّلوهم من شعب إلى جماعة دينيّة، أي من «إسرائيليّين» إلى «يهود.» ومن جماعة السّبي مَنْ قَبِل بذلك، ومنهم من بقي يحلَم بعودة المُلك الإسرائيلي الضائع إلى الوجود بقيادة «مسيح» من بيت داود.

نعود بعد هذا الاستدراك إلى قصّة زَرُبّابل، وهو الذي كان عميد بيت داود ببابل في زمانه، وربّما أوّل من اعتُبر أهلاً لأنْ يكون المسيح المنتظر من هذا البيت. لبّى نداء الملك قورش، وقاد مسيرة العودة الإسرائيلية إلى يهوذا، واهتمّ بإعادة بناء «بيت الربّ» في أورشليم، فالتفّ الإسرائيليّون من أنصار بيت داود حوله، ورُكّزت الآمال عليه. ومن الذين التفّوا حوله اثنان من أنبياء إسرائيل هما حَجَّي وزكريّا (سفر عزرا ٥:١). الأوّل، وهو حَجَّي، تنبّأ وقال (سفر حَجَّي ٢:٢١–٢٣):

كلّم زَرُبّابل... قائلاً :
إنّي أزلزل السموات والأرض،
وأقلب كرسي الممالك،
وأبيد قوّة ممالك الأمم،
وأقلب المركبات والراكبين فيها،

وينحطّ الخيل وراكبوها،
كلّ منها بسيف أخيه.
في ذلك اليوم... آخذك يا زَرُبّابل عبدي،
ابن شألتيئيل، يقول الربّ،
وأجعلك كخاتَمٍ،
لأني قد اخترتُكَ....

أمّا الثاني، وهو زكريّا، فحيّا زَرُبّابل العائد إلى أرض يهوذا، «راكباً على حمار»، بالهتاف الآتي (سفر زكريّا ٩:٩–١٠؛ ٤:٦–٩؛ ٦:١٢–١٣):

ابتهجي جِداً يا ابنة صهيون!
اهتفي يا بنت أورشليم!
هوّذا مليكك يأتي إليكِ!
هو عادل ومنصور،
وديع وراكب على حمار،
وعلى جحش ابن أتان....
يتكلّم بالسلام للأمم،
وسلطانه من البحر إلى البحر،
ومن النهر إلى أقاصي الأرض....،
لا بالقدرة ولا بالقوّة،
بل بروحي، قال ربّ الجنود.
من أنت أيّها الجبل العظيم؟
أمام زَرُبّابل تصير سهلاً...،
بين الهاتفين « كرامةً! كرامةً!....
إن يدَي زَرُبّابل أسّستا هذا البيت،

فيداه تتمّمانه....
هوّذا الرجل:
الغُصْن اسمُه،
ومن مكانه ينبت،
ويَبنى هيكل الربّ.
فهو يَبني هيكل الربّ،
وهو يحمل الجلال ويجلس،
ويتسلّط على كرسيّه.
ويكون [يهوشع بن يهوصادق] كاهناً على كرسيّه،
وتكون مشورة السلام بينهما....

وكان الكاهن الصادوقي يهوشع بن يهوصادق قد شارك زَرُبّابل في قيادة العودة الإسرائيليّة إلى يهوذا، ربمّا حتى لا يكون زَرُبّابل القائد الأوحد لهذه العودة، وليس من باب حسن النيّة، كما افترض النبي زكريّا حينما قال « تكون مشورة السلام بينهما.» لكن سرعان ما بدأ زَرُبّابل يواجه مصاعب في عمله على إعادة بناء « بيت الربّ» بأورشليم، ومن ذلك الوشايات التي بدأت تُرسل ضدّه إلى البلاط الفارسي. ويفيد سفر عزرا (٤:٤) بأنّ مصدر هذه المصاعب والوشايات كان «شعب الأرض» (أي سكّان يهوذا وجوارها من غير الإسرائيليّين). ولعلّ مصدرها الحقيقي كان جماعة الصادوقيّين، علماً بأنّ سفر عزرا يروي قصة العودة إلى يهوذا من وجهة نظر الكهنوت الصادوقي، وليس من وجهة نظر بيت داود. ونجحت وشايات الواشين آخر الأمر، مهما كان مصدرها، وتوقّف العمل في إعادة بناء «بيت الربّ» إلى «السنة

الثانية في مُلك داريوش ملك فارس» (أي إلى العام٥٢٠ ق م).

في ذلك العام استأنف زَرُبّابل العمل في إعادة بناء هيكل أورشليم بالتعاون مع الكاهن يهوشع بن يهوصادق من جهة، وحَجَّي وزكريّا وجماعتهما من الأنبياء من الجهة الأخرى (سفر عزرا ٥:١-٢). وأعلن الملك داريوش مساندته للمشروع واستعداده لتحمّل نفقاته (سفر عزرا ٦:٤). وتنبأ حَجَّي عند بداية العمل بأنّ «مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأوّل» (سفر حَجَّي ٩:١). وكان زَرُبّابل في تلك الأثناء قد تعيّن والياً على يهوذا (سفر حَجَّي ١:١)، ولم يبقَ إلاّ أنْ يُعترف له بقدر من الاستقلال ليصبح بالفعل «المسيح» المعيد لمجد بيت داود، كما كان أنصاره ينتظرون.

لكنّ شيئاً ما حدث بين استئناف العمل في إعادة بناء الهيكل عام ٥٢٠ ق م، واكتمال بنائه عام ٥١٥ ق م (« في اليوم الثالث من شهر أذار في السنة السادسة من مُلك داريوش المَلِك»؛ سفر عزرا ١٥:٦). فعندما اجتمع «بنو إسرائيل» و «باقي بني السّبي» لِ «تدشين بيت الله بفرح،» كان بينهم «الكهنة واللاّويّون،» على ما يُستفاد من سفر عزرا (١٦:٦)، ولم يكن بينهم زَرُبّابل. ولا وجود لأي شيء في أسفار «الكتاب المقدّس» يفسّر غياب زَرُبّابل عن الاحتفال بتدشين الهيكل الذي كرّس لبنائه سنواتٍ عديدةٍ من عمره. بل لا وجود لأيّة معلومات عن مصير زَرُبّابل بعد تعيينه والياً على يهوذا ومباشرته العمل في بناء الهيكل. ولا يبقى إلاّ الواقع، وهو أنّ قصّة زَرُبّابل معروفة البداية، ومجهولة النهاية. والقادرون على إخفاء نهايتها ما كانوا إلاّ الكهنة من بيت صادوق وأعوانهم من الكتبة الذين دوّنوا أحداث ذلك الزمن.

ومهما كانت الحقيقة بشأن مصير زَرُبّابل، فلا شكّ في أنّ اختفاءه من الساحة أضعف الآمال في عودة بيت داود إلى مُلك إسرائيل. إذ لم يقم أحدٌ من أبنائه أو أحفاده الكثر – وهم المدرجة أسماؤهم في سفر أخبار الأيّام الأوّل (٣:١٩–٢٤) – بأيّ دور قيادي من بعده، على ما يظهر. وبذلك خلا الجوّ للكهنوت الصادوقي، فتمكّن أخيراً من تسلّم قيادة شعب إسرائيل في أرض السّبي، وكذلك في أرضه الأصليّة، من دون منافس، محوّلاً هذا الشعب تدريجاً إلى جماعة دينيّة تعتمد الشريعة للحفاظ على هويّتها، بدلاً من النشاط السّياسي أملاً بعودة المُلك إلى إسرائيل.

وحدث بعد اختفاء زَرُبّابل بنصف قرن تقريباً أنْ ظهر في بابل كاهن من بيت صادوق اسمه عزرا (سفر عزرا ٧:١١؛ ١٠:١٠، ١٦؛ سفر نحميا ٨:٢، ٩؛ ١٢:٢٦)، صدف كونه «كاتباً ماهراً في شريعة موسى التي أعطاها الربّ إله إسرائيل» (سفر عزرا ٧:٦). وكان عزرا قد « هيّأ قلبه لطلب شريعة الربّ والعمل بها، وليُعلّم إسرائيل فريضةً وقضاءً» (سفر عزرا ٧:١٠)، فنشط في جمع التراث الديني لبني إسرائيل، ومن ذلك، على الأرجح، مضمون سفر اللاّويّين؛ كما شرع أيضاً، على ما يبدو، في ترتيب المدوّنات الإسرائيليّة الموروثة، وإعادة النظر في مضمونها تمشّياً مع العرف الصادوقي، وذلك بالتعاون مع فريق منتخب من اللاّويّين والكتبة (أنظر سفر نحميا ٨:٧).

وقام عزرا بزيارة يهوذا مرّتين: الأولى قرابة العام ٤٥٨ ق م (في السنة السابعة لمُلك أرتحشستا في بلاد فارس؛ سفر عزرا

٨:٧)، والثانية قرابة العام ٤٤٥ ق م (في السنة العشرين لمُلك أرتحشستا المذكور؛ سفر نحميا ٨:١-٨). وفي الزيارة الثانية «أتى عزرا الكاتب بالشريعة أمام الجماعة من الرّجال والنساء، وكلٍّ فاهم ما يسمع...، وقرأ فيها.... وكان يقرأ في سفر شريعة اللّه يوماً فيوماً.... ويشوع، وباني، وشربيا، ويامين، وعقوب، وشبتاي، وهوديا، ومعسيا، وقلطيا، وعزريا، ويوزاباد، وحنان، وفلايا، واللاّويّون أفهموا الشعب الشريعة، وقرأوا في السفر في شريعة اللّه ببيان، وفسّروا المعنى، وأفهموهم القراءة» (سفر نحميا ٢:٨-٣،١٨،٧-٨). وبعد ذلك قطع الشعب ميثاقاً بالالتزام الكامل بشريعة الربّ واتّباع كلّ ما توصي به، ووضع رؤساء الشعب أختامهم على هذا الميثاق، وكذلك فعل اللاّويّون والكهنة الحاضرون (سفر نحميا ٣٨:٩). وكانت بذلك البداية الحقيقيّة لليهوديّة كديانة منظّمة.

ولعلّ عزرا توفي في يهوذا، كما يقول المؤرخ اليهودي يوسيفُس، الذي كتب «تاريخ اليهود» في القرن الميلادي الأوّل. لكن المرجّح أنّ عزرا عاد إلى بابل وتوفّي هناك، فدفن في ما يعرف اليوم بمقام «النبي عُزَيْر» بجنوب العراق. وما زال اليهود يقدّسون هذا المزار.

وقام في بابل، بعد عزرا، من استمرّ في العمل على جمع المدوّنات الإسرائيليّة الموروثة، وإعادة ترتيب محتوياتها، والإضافة إليها، حتى اكتمل هذا العمل في أواخر القرن الرّابع أو بداية القرن الثالث قبل الميلاد. وبذلك أصبح لليهود «كتاب مقدّس»

متّفق على مضمونه. ويبدو أنّ المؤسّسة الصادوقيّة التي أشرفت على إخراج هذا الكتاب حرصت على أنْ يأتي هذا الإخراج مقبولاً ليس فقط من اليهود التابعين لتعليم عزرا، بل كذلك من الإسرائيليّين الذين بقوا يعقدون الآمال على «مسيح» من بيت داود يعيد المُلك إلى إسرائيل، وذلك بالإبقاء على الأسفار المحبّبة لدى هؤلاء، ومنها أسفار الأنبياء، من أمثال حَجَّي وزكريّا، الذين انتصروا لزَرُبّابل في زمانه.

٣

النقلة إلى فلسطين

في الوقت الذي كان العمل على إخراج الكتاب المقدّس العبري يشرف على نهايته في بابل، انطلق الإسكندر الكبير بجيوشه من مقدونيا، فافتتح بلاد الأناضول (٣٣٤-٣٣٣ ق م) وسورية (٣٣٣-٣٣٢ ق م) ومصر (٣٣٢ ق م). ثم تحوّل شرقاً عبر نهر الفرات، فافتتح بابل وبلاد فارس (٣٣١-٣٣٠ ق م)، واصلاً إلى أطراف آسيا الوسطى والهند (٣٢٥ ق م). وهكذا، وفي أقلّ من عشر سنوات، انقلبت أوضاع العالم القديم رأساً على عقب، وأصبحت مشارقه ومغاربه خاضعة لسيطرة هيلينيّة واحدة، ومرتبطة ببعضها حضاريّاً بشكل لم يكن معروفاً من قبل. وبعد وفاة الإسكندر (٣٢٣ ق م) نشبت الحروب بين ثلاثة من كبار قادة جيوشه، كلّ منهم يطمح بخلافته، حتى انتهى الأمر إلى اقتسام تركته بين هؤلاء الثلاثة. فتملّك أحدهم (وهو المدعو أنتيغونُس) على مقدونيا والبلاد الإغريقيّة، والثاني (وهو المدعو بطليمُس)

على مصر، حيث جعل عاصمته في الإسكندرية (وهي المدينة التي أسّسها الإسكندر وأسماها باسمه). أمّا الثالث، (وهو المدعو سلوقُس) فتملّك أوّل الأمر على بلاد فارس وبابل وما يليها من البلاد إلى الغرب من الفرات. لكنّه لم يتمكّن من الإبقاء على مُلكه الأوّل هذا، فتحوّل غرباً إلى سورية وما يليها إلى الشمال من بلاد الأناضول، فجعل مملكته هناك، وأسّس لها عاصمةً على بُعد قليل من مصبّ نهر العاصي أسماها أنطاكية (٣١٢ ق م).

وكانت فتوحات الإسكندر قد أزالت الحواجز القائمة سابقاً بين مشارق العالم القديم ومغاربه، فما أنْ انتهت الحروب بين خلفائه حتى انتعشت التجارة، وبشكل لم يسبق له مثيل، بين حوض المحيط الهندي وحوض البحر المتوسّط، جاعلةً من الإسكندرية، على الساحل المصري، كبرى محطّاتها. ومن أهم مسالك هذه التجارة ما كان يعبر الأطراف الغربية من الجزيرة العربيّة والمياه المحاذية لها وصولاً إلى مشارف سورية، ومنها فلسطين، فازهردت هذه البلاد على الأثر، وهي التي لم تكن من قبل إلاّ أريافاً ومراعٍ، وتحوّلت كبرى قراها إلى مدن عامرة تجتذب السكّان من كلّ صوب. ومنهم أعداد كبيرة من اليهود القادمين بأكثريتهم الساحقة، على الأرجح، من أرض يهوذا وجوارها بالحجاز. علماً بأنّ مشارف سورية، من ناحية هيئة الأرض، ما هي إلاّ امتداد لمرتفعات الحجاز باتّجاه الشمال. وممّا يُذكر بالمناسبة أنّ النزوح اليهودي في تلك الفترة لم يقتصر على فلسطين وجوارها، بل شمل مناطق أخرى من حوض البحر المتوسّط، وخاصّةً مصر، حيث نشأت جالية يهوديّة عظيمة

الشأن في ظلّ دولة البطالمة. وكان في الإسكندريّة، وبطلب من البطالمة، أنْ قام أحبار اليهود المحليّين في غضون القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد بترجمة أسفارهم المقدسّة للمرة الأولى إلى اللغة اليونانيّة، وهي الترجمة المسمّاة «السبعونيّة» نسبةً إلى العدد التقريبي للأحبار الذين قاموا بها.

أمّا في فلسطين، فما لبث الوجود اليهودي أن تعاظم إلى حدّ جعل الإغريق يطلقون على الأجزاء الوسطى من البلاد اسم «اليهوديّة» (باليونانيّة loudaia)، بمعنى «أرض اليهود»، وذلك في وقت لا يمكن تحديده بدقّة. وكان المؤرّخ الإغريقيَ هيرودوتُس قد زار «الجزء من سورية المسمّى فلسطين» (Palaistine Surie) في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، أي في زمن عزرا، حين كان هيكل أورشليم، بأرض يهوذا (باليونانيّة louda وليس loudaia) قد أعيد بناؤه، فوجد البلاد مأهولة بمن أسماهم «سوريّي فلسطين» (حروب الفرس ١٠٥:١؛ ١٠٤:٢، ١٠٦، ٥:٣، ٩١؛ ٣٩:٤)، وهم شعب يكاد لا يختلف في تقاليده وعاداته (بما فيها ختان الذكور) عن جيرانه الفينيقيّين إلى الشمال (١٠٥:٢؛ ٨٩:٢). ولم يلحظ هيرودوتُس وجوداً ليهود أو لإسرائيليّين في البلاد. ولا هو لاحظ وجود مدينة مقدّسة في وسطها اسمها «أورشليم» أعيد بناء هيكلها حديثاً. وفي ذلك ما يشير إلى أنّ النزوح اليهودي إلى فلسطين لم يكن قد حصل بعد في أيّامه إلى حدٍّ يلفت النظر. أمّا الجغرافي الإغريقي استرابون (المتوفّي بعد العام ٢٣ للميلاد)، فلم يتحدّث فقط عن فلسطين مسمّياً إيّاها «اليهوديّة»، بل أشار إلى وجود بلدة هناك تحيط بقلعة (akropolis) يقدّسها اليهود، وأنّ البلدة هذه تسمّى «أورشليم» (الجغرافية

٢٨:٢:١٦). والظاهر من ذلك أنّ اليهود النازحين من «يهوذا» إلى ما يسمّى «اليهوديّة» حملوا اسم «أورشليم» معهم ليطلقوه على البلدة الفلسطينيّة التي اختاروها لإقامة المعبد الأساسي لطائفتهم في أرض اغترابهم، وذلك في وقت ما بين زمن هيرودوتُس وزمن استرابون.

ويستفاد من مؤلَّفي «تاريخ اليهود» و«حروب اليهود» للمؤرّخ اليهودي يوسيفُس (توفّي ١٠٠م تقريباً) أنّ يهود مصر قاموا بتشييد هيكل لطائفتهم على شاكلة هيكل «أورشليم،» وإنْ بحجم أصغر، على أنقاض معبد وثني قديم، وذلك في عهد بطليمُس الثامن (١٨٠–١٤٥ ق م تقريباً)، وبإذن منه، وأنّ الهيكل هذا بقي قائماً حتى بداية العهد الرّوماني (تاريخ اليهود ١٣:٣:١–٣؛ حروب اليهود ٧:١٠:٣–٤). وممّا يقوله يوسيفُس أيضاً إنّ السامرّيين، وهم طائفة من الإسرائيليّين المناهضين لليهود، كانوا قد أقاموا لأنفسهم هيكلاً آخر في فلسطين على شاكلة هيكل «أورشليم» في «جريزيم» التي هي اليوم جزء من بلدة نابلس (أنظر، مثلاً، حروب اليهود ١:١:٦). ولعلّ هيكل «أورشليم» الذي بُني على شاكلته هيكل يهود مصر، وهيكل السامريّين بفلسطين، لم يكن هيكل «أورشليم اليهوديّة» بفلسطين، كما يفترض يوسيفُس، بل هيكل «أورشليم يهوذا» بسراة عسير. ولعلّ هيكل «أورشليم اليهوديّة» بُني على شاكلة هذا الهيكل الأصلي ذاته.

والمعروف أنّ يهود فلسطين قاموا بثورة ضد السلوقيّين في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، وذلك بقيادة أُسرة من الكهنة

تُسمّى الأُسرة «المكّابيّة،» والأصحّ «الحشمونيّة.» والثورة هذه نتج عنها قيام دولة يهوديّة في البلاد اعترف لها السلوقيّون بنوع من الاستقلال. وما لبثت تخوم هذه الدولة أنْ توسّعت لتشمل كامل فلسطين وأطرافاً من البلاد المجاورة، حيث فرض الحشمونيّون ديانتهم على السكّان المحليّين بالقوّة أحيانا. ومن هؤلاء جماعة «الإيدوميّين،» من نبيط العرب الذين كانوا يسكنون المنطقة الممتدّة من جنوب البحر الميت إلى خليج العقبة، بمحاذاة دولة أنباط البتراء إلى الشرق. وتاريخ الحشمونيّين معروف من أسفار المكّابيّين الأربعة المكتوبة باليونانيّة (وهي من أسفار اليهود المتأخرّة وغير المقدّسة لديهم)، ومن مؤلّفات المؤرّخ اليهودي يوسيفُس المكتوبة، هي أيضاً، باليونانيّة.

وفي سفر المكّابيّين الأوّل أنّ الحشمونيّين قدموا فلسطين أصلاً من مكان اسمه Modin، فراعهم الوضع الذي وصلت إليه اليهوديّة في البلاد تحت حكم السلوقيّين، ولذلك قاموا بثورتهم. ولعلّ Modin كانت بلدة «مِدْيَن» التاريخيّة بشمال الحجاز، حيث كان الوجود اليهودي مرموقاً منذ زمن آخر ملوك بابل من ذرّية نبوخذناصّر.

واستمرّ الحشمونيّون يحكمون دولة «اليهوديّة» في فلسطين بصفتهم كهنة، إلى أنْ بدأ المتأخّرون منهم يسمّون أنفسهم ملوكاً. وصار الأُخوة من البيت الواحد يتنافسون على العرش. وكانت مثل هذه المنافسة قائمة عندما دخل الرّومان فلسطين عام ٦٣ق م، بعد قضائهم على الدولة السلوقيّة في سورية، فاحتكم المتنافسون من الأُسرة الحشمونيّة إليهم، وانتهوا إلى الخضوع التام لمشيئتهم. ففقدت الدولة الحشمونيّة في «اليهوديّة» استقلالها، وصار

الرّومان يعيّنون ولاةً بلقب procurator (أي «وكيل») على البلاد، مع الاستمرار في الاعتراف بالحشمونيّين ملوكاً إلى حين.

وكان أوّل من عيّنه الرّومان والياً على «اليهوديّة» في العام ٤٧ ق م رجل ثريّ وبارز من عرب «إيدوميا» الحديثي العهد باليهوديّة، اسمه باليونانيّة أنتيباتر. وزوجته تنتمي، هي أيضاً، إلى أُسرة عربيّة من أعيان دولة الأنباط بالبتراء. وكان المذكور قد بدأ يتقرّب إلى الرومان منذ اللحظة التي دخلوا فيها فلسطين، فأنعموا عليه بالتبعيّة الرومانيّة، وأصبح من كبار عملائهم في بلاد المشرق. وما لبث أنتيباتر أنْ اغتيل عام ٤٣ ق م، فعيّن الرّومان ابنه هيرودُس (ولعلّ اسمه بالعربيّة «حرد» أو «حيرود») حاكماً على «اليهوديّة» مكانه، ثم اعترفوا به ملكاً على البلاد (٣٧–٤ ق م) بدلاً من الملك الحشموني الأخير الذي خُلع عن العرش، ثم قُتل.

وحرص هيرودُس خلال مُلكه على إظهار يهوديّته المشكوك في أصالتها، وهو الذي كان يعتبر «نصف يهودي» (تاريخ اليهود ٢:١٥:١٤)، فجاء بمن يختلق لأُسرته نسباً يُرجعها إلى يهود السّبي في بابل (تاريخ اليهود ٣:١:١٤). وربمّا كان للسبب نفسه أنْ هَمَّ هيرودُس في تشييد هيكل عظيم لليهود في أورشليم «اليهوديّة،» جاعلاً بذلك من هذه المدينة، وربمّا للمرة الأولى، قبلةً ليهود العالم. وكانت بداية بناء هذا الهيكل عام ١٩ ق م، واستغرق العمل في بنائه سنة وستة أشهر (تاريخ اليهود ١:١١:١٥–٧).

وبعد وفاة هيرودُس عام ٤ ق م، تقسمّت مملكته إلى أربعة «أرباع،» ثلاثة منها توزّعت بين ثلاثة من أبنائه، والرّابعة –

وهي رُبع «اليهوديّة» – أُوكل حُكْمُها إلى ولاة رومانيّين. ومن هؤلاء الولاة الرّومانيّين على «اليهوديّة» بيلاطُس المعروف بالبُنطي الذي عيّنه طيباريوس قيصر (حَكَمَ ١٤–٣٧م) لهذا المنصب، فاستمرّ في ولايته حتى وفاة هذا الامبراطور (تاريخ اليهود ١٨:٣:١؛ ١٨:٤:١–٢؛ حروب اليهود ٢:٩:٢–٤؛ ١٨:٤:٢).

المهمّ في الأمر أنّ دولة «اليهوديّة» التي أسّسها الحشمونيّون في فلسطين، وورثها عنهم الهيروديّون من بعدهم، كانت الدولة اليهوديّة الوحيدة في زمانها. ومن اليهود، من أمثال المؤرّخ يوسيفُس، من رأى في تاريخ هذه الدولة استمراراً طبيعيّاً لتاريخ بني إسرائيل القدماء، وإنْ بعد انقطاع دام أربعة قرون ونصف تقريباً، وهي الفترة التي جُمعت ورُتّبَت فيها أسفار الكتاب المقدّس العبري، وتنظّمت فيها الديانة اليهوديّة، كما سبق. ولا بدّ أنّ يوسيفُس وغيره من علماء اليهود في زمانه كانوا يعرفون معرفة تامة، وإنْ كانت غيرَ مُعلنة ، بأنّ أرض مملكة «اليهودية» (loudaia) في فلسطين لم تكن هي ذاتها أرض مملكة «يهوذا» (louda) التي استمّرت تحت حكم بيت داود بعد وفاة سليمان، في حين انفصلت عنها مملكة «إسرائيل.» والدليل على ذلك أنّ يوسيفُس قَصَدَ، وبوضوح، استخدام اسم louda في تاريخه للدلالة فقط على سبط «يهوذا» من أسباط إسرائيل الاثني عشر، وهو لم يستخدم هذا الاسم قطّ للدلالة على مملكة « يهوذا» القديمة، بل هو أشار إلى هذه المملكة على أنّها مملكة «السِبْطَين،» نسبة إلى سبطَي يهوذا وبنيامين، اللذين كانا يشكّلان شعبها (تاريخ اليهود، ابتداءً من ٨:٨:٣)، أو مملكة «سبط يهوذا» (مثلاً، ٨:٩:٦)، مميّزاً إياها عن

مملكة «الأسباط العشرة»» كناية عن مملكة «إسرائيل» (تاريخ اليهود، ابتداءً من ٤:٨:٨). ولو لم يكن لدى يوسيفُس قصد في التمويه لما لجأ إلى مثل هذه الحيلة في التسميتَين. علماً بأنّ أسفار الكتاب المقدّس العبري التي اعتمد عليها يوسيفُس في كتابة تاريخه تُفرّق بين مملكة «يهوذا» ومملكة «إسرائيل» بالاسم في كلّ إشارة إلى واحدة منهما أو إلى كليهما.

والمهمّ في الأمر أيضاً أنّ تحوّل الدولة الحشمونيّة في أواخر عهدها إلى مملكة أثار قدراً من الحفيظة في صفوف اليهود، خاصّةً بعدما أصبحت هذه المملكة في عهدة الأسرة الهيروديّة غير الإسرائيليّة الأصل. وفي ذلك ما اضطرّ الملوك الحشمونيّين، والهيروديّين من بعدهم، إلى مصانعة هذا الفريق أو ذاك من اليهود للتمكّن من الحكم. ومن الفِرَق اليهوديّة بفلسطين في ذلك الزمان فريق «الصَدّوقيّين» الذي كان يتمتّع بدعم من الطبقات الثريّة والنافذة. هذا الفريق لم يعترف برئاسة يهوديّة مشروعة غير رئاسة الكهنة، وفي تسميته ما يشير إلى علاقة تاريخيّة بينه وبين المؤسّسة الكهنوتيّة الصادوقيّة التي قامت بتنظيم اليهود كجماعة دينيّة في زمن السّبي (أنظر الفصل السّابق). وكان الصَدّوقيّون لا يقرّون بعبادة مشروعة غير العبادة الإسرائيليّة التقليديّة القائمة على الذبيحة في الهيكل، وهم يصرّون على التمسّك بحرفيّة الشريعة كما هي مدوّنة في التوراة (وهي الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى من الكتاب المقدّس العبري).

وكان يقابل الصَدّوقيّين في الأهميّة فريق «الفرّيسيّين» الذي كان يقول بضرورة تفسير «التوراة المكتوبة» في ضوء أسفار

الأنبياء من الكتاب المقدّس العبري، وأكثر من ذلك في ضوء «توراة غير مكتوبة» أُوحي بها إلى موسى إلى جانب «التوراة المكتوبة،» فتوارثها العارفون بالشريعة من بعده عن طريق التقليد الشفوي. وكان الفرّيسيّون، على عكس الصَدّوقيّين، يقرّون بصلاحيّة العبادة خارج الهيكل، معتمدين في ذلك «المجامع» أو «الكُنُس» حيث كانت العبادة لا تقوم على الذبيحة، بل على قراءة الأسفار المقدّسة وتفسيرها. ومن ذلك اسم «الفرّيسيّين» (من الجذر العبري «فرش») بمعنى «المُفسِّرين.» وهؤلاء لم يكونوا كهنة، بل «مُعلّمين» من طبقات العامة، وشعبيّتهم لدى العامّة تفوق شعبيّة «الصَدّوقيّين» لهذا السبب. ولا بدّ من الإشارة بالمناسبة إلى أنّ اليهوديّة التي استمرّت تاريخيّاً منذ ذلك الزمن هي يهوديّة الفرّيسيّين، لا يهوديّة الصَدّوقيّين التي زالت من الوجود قبل نهاية القرن الميلادي الأوّل.

ومن مزايا الفرّيسيّين أنّهم كانوا يتعلّمون العبريّة، كما كان يفعل الكهنة والكتبة، فيقرأون أسفارهم المقدّسة في لغتها الأصليّة، وينقلون المعاني منها عند الحاجة إلى اللغة الأراميّة الدّارجة بين عامّة الشعب. ومن ذلك نشأت الصِيَغ الأراميّة لهذه الأسفار التي جرى تدوينها لاحقاً، والمعروفة باسم «التَّرْجُوم.» وكان اليهود وغيرهم من الإسرائيليّين قد بدأوا يتكلّمون الأراميّة بدلاً من العبريّة منذ زمن السّبي، سواءً في فلسطين أو في بابل وغيرها من بلاد المشرق، بما فيها الجزيرة العربيّة، خاصّةً بعد أنْ اعتمدت الدولة الفارسيّة اللغة الأراميّة لحكم هذه البلاد، بحيث زالت العبريّة من الوجود زوالاً تاماً مع الوقت كلغة محكيّة في أوساط العامّة.

ومن الفِرَق اليهوديّة التي تتحدّث المصادر عن وجودها في

فلسطين في أوائل العهد الرّوماني الفريق الذي كان يُسمّى أتباعُه باليونانيّة Essenoi والمفرد Essenos (ولعلّ الاسم في أصله الأرامي «أَشُونا» أو «أَشِينا،» بمعنى «الشديد،» أو «القاسي»). كان هؤلاء يشدّدون على فضيلة الزهد في الحياة. ويسود الاعتقاد بأنّ «مخطوطات البحر الميت» تحتوي على بعض مخلّفاتهم. أضف إلى هؤلاء فريق «الغُلاة» (المفرد باليونانيّة Zelotes) الذين رفضوا الخضوع للحكم الرّوماني ودعوا إلى مقاومته بكلّ وسيلة ممكنة.

وكان السامريّون قد انشقّوا عن اليهود منذ القرن الخامس قبل الميلاد، على ما يبدو، فقبلوا بأسفار التوراة الخمسة المنسوبة إلى موسى، ورفضوا القبول بسائر الأسفار اليهوديّة المقدّسة. ومنها أسفار «الأنبياء» التي جرى إخراجها بعد عهد عزرا. وكان السّامريّون يعتبرون أنفسهم إسرائيليّين، وليس يهوداً، وينتسبون إلى فرعَي إفرايم ومنسّى من سبط يوسف، وهو واحد من الأسباط العشرة التي خرجت عن حكم بيت داود بعد عهد سليمان، وانضوت تحت لواء ملوك «إسرائيل» بدلاً من ملوك «يهوذا.» وكان اليهود يحتقرون السامريّين، ويحرِّمون التعامل معهم، ويعتبرونهم من ألدّ أعدائهم.

تبقى القضيّة التي لا تتحدّث عنها المصادر المتوفرّة، بل ربمّا تتحاشى ذكرها عن قصد، وهي قضيّة الفريق الإسرائيلي الذي بقي يأمل في ظهور «مسيح» من بيت داود، وربمّا من سلالة زَرُبّابل حصراً، يتبوّأ عرش داود ويعيد إلى بني إسرائيل مُلكهم الضائع. ولا بدّ أنّ هذا الفريق الإسرائيلي «المسيحي» (إذا صحّ التعبير) بقي له

وجود – بل ربمّا وجود مرموق – بعد زمن زَرُبّابل. ولو لم يكن الأمر كذلك لما اضطرّت المؤسّسة الصادوقيّة، في إخراجها للأسفار اليهوديّة المقدّسة، إلى الإبقاء على سِفري حَجّي وزكريّا، وغيرهما من أسفار الأنبياء الذين أملوا بعودة المُلك إلى بيت داود. ويُفترض بأنّ أنصار بيت داود من الإسرائيليين لم يصبحوا يهوداً بالمعنى الكامل، أي يهوداً معترفين بشرعيّة القيادة الصادوقيّة لمِلّتهم، بل جُلّ ما في الأمر أنّهم قبلوا بشرعيّة الأسفار اليهوديّة المقدسّة كما جرى إخراجها على أيدي الصادوقيّين وأعوانهم من الكتبة. ويفترض أيضاً أنّهم لم يأنسوا لقيام الدولة الحشمونيّة الكهنوتيّة وغير الداوديّة في فلسطين في زمن السلوقيّين، كما أنّهم لم يأنسوا لحلول الأُسرة الهيروديّة غير الإسرائيليّة أصلاً على رأس هذه الدولة، مكان الأُسرة الحشمونيّة، في بداية العهد الرّوماني.

هذه الافتراضات عن قِدَم وُجود فريق إسرائيلي «مسيحي» لا يعترف بشرعيّة الأمر «اليهودي» الواقع لا تدعمها أيّة معلومات ثابتة. لكنّها، على ذلك، تبقى افتراضات مشروعة. وقد يكون من الممكن، في ضوئها، تفهّم النواحي الغامضة من سيرة «يسوع المسيح.» وهو الإسرائيلي الناطق بالأراميّة الذي كان يُسمّى في زمانه «ابن داود» و «ملك إسرائيل.»

٤

يسوع النّاصري

في وقت ما بين العامين ٢٧ و ٣٦ للميلاد، حين كان المدعو بيلاطس البُنطي والياً رومانيّاً على «اليهوديّة»، ظهر في أرض الجليل بفلسطين رجلٌ اسمه يسوع النّاصري، من سلالة زَرُبّابل ابن شألتيئيل، مُعلناً عن نفسه بأنه صاحب الحقّ بالمُلك على إسرائيل.

والمعلومات الأساسيّة عن يسوع النّاصري تأتي من الأناجيل الأربعة المكتوبة أصلاً باليونانيّة، والمنسوبة بالتّتابع إلى أربعة ممّن يُسمّون بِـ «الرُّسل» (apostoloi والمفرد apostolos): متّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنّا. والأناجيل الأربعة هذه هي الأسفار الأولى من «العهد الجديد» الذي أضافه أتباع يسوع – الذين هم «المسيحيّون» – إلى «االعهد القديم» الذي هو الكتاب المقدّس العبري الذي يشتركون في تقديسه مع اليهود. وقد سبق الكلام عن ذلك في الفصل الأوّل من هذا الكتاب. وما تفيده الأناجيل الأربعة عن سيرة يسوع يضاف إليها ما يقوله «الرّسول» بولس عن شخص يسوع في

رسائله الثلاث عشرة الملحقة بالأناجيل، مع غيرها من الكتابات، في «العهد الجديد.» وجميعها مكتوب باليونانيّة، كما سبق.

ويُجمع أهل الاختصاص على أنّ رسائل بولس كُتبت على الأرجح بين عامي ٥٤ و ٦٧م، ممّا يجعلها أقدم من الأناجيل التي كُتبت بعد هذا التاريخ (أُنظر الفصل الأوّل). ويقوم الإجماع العلمي أيضاً على أنّ النصوص التي لدينا من رسالة بولس إلى أهل غلاطية، ورسالته إلى أهل رومية (أي روما)، ورسالتَيه إلى أهل كورنثوس، هي نصوص غير مشكوك في أصالتها، وأنّ رسائل بولس الأخرى، هي أيضاً، تحتوي على مقاطع أصيلة من قلمه. فما هي المعلومات التي يقدّمها بولس عن شخص يسوع؟

١- يقول بولس إنّ يسوع كان إسرائيليّاً (رومية ٩:٤-٥). وهو لا يعرّفه بأنّه كان يهودياً.

٢- يقول بولس إنّ يسوع كان من نسل داود (رومية ١:٣؛ ٢ تيموثاوس ٢:٨)، وذلك بطريقة عابرة، من دون أيّ تعليق.

٣- يشير بولس إلى أنّ يسوع كان في الأصل «غنيّاً» (باليونانيّة plousios) ثمّ «افتقر» (باليونانيّة ptocheia) من خلال سعيه إلى الخير العام (في الأصل، «من أَجلِكُم»؛ ٢ كورنثوس ٨:٩).

٤- قُتل يسوع إعداماً على الصليب (غلاطية ٣:١) بعد أنْ «أُسلِم» إلى الذين قاموا بصَلبه (١ كورنثوس ١١:٢٣).

٥- مَثَل يسوع لدى محاكمته أمام بيلاطُس البُنطي (١ تيموثاوس ١٣:٦).
٦- يحمّل بولس اليهودَ مسؤولية قتل يسوع (١ تسالونيكي ١٤:٢-١٥).
٧- التقى بولس بشقيق ليسوع اسمه يعقوب، وذلك خلال زيارتين قام بهما إلى أورشليم (غلاطية ١٩:١؛ ٩:٢).

ويُلاحَظ أنّ بولس لا يتحدث في رسائله عن والد يسوع، ولا يذكر والدته بالاسم في إشارته الوحيدة إليها (غلاطية ٤:٤). أضف أنّ لا إشارة في رسائل بولس إلى أنّ يسوع وُلد من امرأة عذراء.

ننتقل من رسائل بولس إلى ما تقوله الأناجيل عن يسوع، فنجد أنّ الأربعة منها تُجمع على أنّ والد يسوع كان يُسمّى يوسف. أمّا بالنسبة إلى والدته، فثلاثة من الأناجيل (متّى ومرقس ولوقا) تعرّفها باسم مريم، والإنجيل الرّابع (يوحنّا ١:٢، ٣، ٥، ١٢؛ ٤٢:٦؛ ٢٥:١٩، ٢٦) - مثله مثل الرّسول بولس - لا يعرّفها بأيّ اسم عند ذكرها، بل يشير إلى أنّ أُختاً لها (باليونانيّة adelphe)، أي إحدى خالات يسوع، كان اسمها مريم (يوحنا ٢٥:١٩)، ممّا ينفي ضمناً كون مريم اسم والدة يسوع.

أضف أنّ إنجيلين فقط من الأناجيل الثلاثة التي تُسمّي والدة يسوع مريم تتحدّث عن ولادته منها وهي بعد عذراء (متّى ١٨:١-٢٥، ولوقا ٢٦:١-٣٨؛ ٤:٢-٧). علماً بأنّ هذين الانجيلَين هما اللذان يوردان نسب يسوع إلى زَرُبّابل، ثُمّ إلى داود، عن طريق

الذكور، وإنْ بطريقتين مختلفتين (متّى ١:٦-١٦؛ لوقا ٣:٢٣-٣١)، من دون الملاحظة بأنّ مثل هذا النسب لا يتّفق مع القول بولادة يسوع من عذراء. وكما هو الأمر في رسائل بولس، فلا توجد أيّة إشارة في إنجيلَي مرقس ويوحنّا إلى ولادة يسوع من عذراء. أضف أنّ الأناجيل جميعها تتّفق مع ما يقوله بولس عن كون يسوع سليلاً لداود. بل يُسمّى يسوع في ثلاثة منها «ابن داود» في مخاطبة الناس له (متّى ١:١؛ ٩:٢٧؛ ١٢:٢٣؛ ١٥:٢٢؛ ٢٠:٣٠،٣١؛ ٢١:٩،١٥؛ ٢٢:٤٢؛ مرقس ١٠:٤٧، ٤٨؛ لوقا ١٨:٣٨، ٣٩).

والأناجيل الأربعة، مثلها مثل رسائل بولس، لا تُعرِّف يسوع بأنّه كان يهوديّاً، بل جُلّ ما في الأمر أنّه خُتن وتربّى «حسب شريعة موسى» (على ما يُستفاد من إنجيل لوقا ٢:٢١-٢٤، ٢٧). ويبدو ممّا تقوله الأناجيل أنّ اليهود احتاروا في أمر يسوع من ناحية انتمائه الديني، حتى أنّ بعضهم اعتبره «سامريّاً» (يوحنّا ٨:٤٨). وليس في الأناجيل الأربعة أيّ ذكر لطقوس أو مراسم معيّنة كان يسوع يقوم بها كرجل دين. بل وفي إنجيل يوحنّا تأكيد على أنّ يسوع لم يكن يُعمِّد أتباعه بالماء، مثلاً، كما صار يفعل تلاميذه من بعده (يوحنّا ٤:٢). وفي ذلك ما يشير إلى أنّ يسوع لم يكن يسعى إلى إيجاد ديانة خاصّة به، بل تلاميذه هم الذين فعلوا ذلك في وقت لاحق.

أمّا بالنسبة إلى وضع يسوع المادي، فلا إشارة مباشرة في الأناجيل، كما في رسائل بولس، إلى أنّه كان في الأصل غنيّاً. بل جُلّ ما يستفاد من الأربعة منها أنّ يسوع كان يتحدّث عن «الفقراء» (باليونانيّة ptochoi والمفرد ptochos) وضرورة حسن

معاملتهم، وكأنّه لم يكن واحداً منهم. والواضح من إنجيل يوحنا (٦:١٢؛ ٢٩:١٣) أنّ يسوع كان في حوزته «صندوق» مال أوكله للمدعو يهوذا الإسخريوطي للإنفاق عليه وعلى أتباعه، ممّا يعني، في الأقلّ، أنّه لم يكن مُعدماً.

ويُستفاد من إنجيلي متّى (٥٥:١٣) ومرقس (٣:٦) أنّ يسوع لم يكن له أخٌ واحد فحسب (وهو المسمّى يعقوب، والذي التقى به بولس في أورشليم مرّتين)، بل كان له ما لا يقلّ عن أربعة أُخوة هم: يعقوب، وسمعان، ويوسي (حسب إنجيل مرقس، ويوسف حسب إنجيل متّى)، ويهوذا. وذلك عدا عن الأخوات.

وتتّفق الأناجيل الأربعة مع ما يقوله بولس عن «تسليم» يسوع، ومثوله أمام الوالي الرّوماني بيلاطُس البُنطي، وموته على الصليب، ومسؤوليّة اليهود عن ذلك. وهي المسؤوليّة التي يؤكدّها المؤرّخ اليهودي يوسيفُس (تاريخ اليهود ١٨: ٣: ٣).

وفي الأناجيل أخبار أخرى عن تحرّكات يسوع وأقواله وأعماله، منها ما هو متناسق إلى حدّ ما بين الإنجيل والآخر، ومنها ما هو متضارب أو متضادّ. والمُلاحَظ أنّ جزءاً كبيراً من هذه الأخبار ناتج عن محاولات خفيّة أو واضحة للرّبط بين سيرة يسوع والنبوءات الواردة – أو المفترض كونها واردة – في أسفار «العهد القديم» عن المسيح الموعود لبني إسرائيل. علماً بأنّ الأناجيل وُضعت أساساً لإقامة البرهان على أنّ يسوع ما هو إلاّ ذلك المسيح الموعود.

نأخذ، مثلاً، القصّة التي يرويها إنجيل متّى عن ولادة يسوع، فلا نجد فيها شيئاً لا يستند إلى نبوءات من «العهد القديم»:

يبدأ متّى قصّته هذه بالقول بأنّ مريم «كانت مخطوبة ليوسف، قبل أنْ يجتمعا،» عندما «وُجدت حبلى من الرّوح القدس.... وهذا كلّه كان لكي يتمّ ما قيل من الربّ بالنبيّ القائل: هوّذا العذراء تحبل وتلد ابناً...» (متّى ١٨:١، ٢٢–٢٣). والنبوءة هذه هي من سفر إشَعياء (١٤:٧). ثمّ ينتقل متّى إلى القول بأنّ يسوع «وُلد... في بيت لحم اليهوديّة (loudaia)... لأنّه هكذا مكتوب بالنبيّ: وأنتِ يا بيت لحم أرض يهوذا (louda وليس loudaia) لستِ الصُّغرى بين رؤساء يهوذا، لأنّ منكِ يخرُج مدبِّر يرعى شعبي إسرائيل» (متّى ١:٢، ٥–٦). والنبوءة هذه هي من سفر ميخا (٢:٥). ويُلاحَظ بالمناسبة أنّ قول متّى (وكذلك لوقا، ٤:٢) بولادة يسوع في «بيت لحم اليهوديّة» يناقضه يوحنّا الذي يفيد بأنّ من الإسرائيليّين من لم يعترف بكون يسوع هو المسيح المنتظر لأنّه لم يأتِ من «بيت لحم أرض يهوذا،» حسب نبوءة ميخا، بل كان مجيئُه من «الجليل» (يوحنّا ٤١:٧–٤٢).

وبعد ذلك يأتي الحديث في إنجيل متّى عن المجوس – وهم الغرباء عن إسرائيل – الذين رأوا نجم يسوع في «المشرق» الذي كان بلادهم، فساروا تابعين نور هذا النجم إلى أنْ وصلوا إلى المكان الذي وُلد فيه يسوع في بيت لحم، فخرّوا أمام الطفل ساجدين، وقدّموا له هدايا من الذهب واللّبان والمُرّ (متّى ١:٢–١٢). وما هذه القصّة إلاّ نسيج حول نبوءة من سفر إشَعياء (٣:٦٠) عن المجد الذي سيضفيه مجيء المسيح على أورشليم، حيث تقول هذه النبوءة: «فتسير الأُمم [من الغرباء عن إسرائيل] في نوركِ، والملوك في ضياء إشراقكِ.»

وفي إنجيل متّى (٢:١، ٧-٨، ١٦-١٨) أنّ ولادة يسوع في «بيت لحم اليهوديّة» حدثت في عهد الملك هيرودس الكبير، وأنّ هيرودس هذا، حين علم من المجوس بأنّ ملكاً جديداً لليهود قد وُلد في مكان ما من كورة بيت لحم، «أرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كلّ تخومها، من ابن السنتين فما دون، بحسب الزّمان الذي تحقّقه من المجوس.» وهنا يُضيف متّى مفسِّراً: «حينئذٍ تَمَّ ما قيل بإرميا النبيّ القائل: صوتٌ سُمع في الرّامة، نوحٌ وبُكاء وعويل كثير. راحيل تبكي على أولادها ولا تُريد أنْ تتعزّى لأنّهم ليسوا بموجودين» (إرميا ٣١:١٥). (وراحيل المذكورة في هذه النبوءة هي جدّة لبني إسرائيل ماتت ودُفنت في جوار بيت لحم يهوذا، على ما يقوله سفر التكوين ٣٥:١٩.) والمصادر المتوفرّة عن الملك هيرودس، وعن عهده، لا تأتي على أيّ ذكر لقيامه بقتل جميع الذكور من أطفال «بيت لحم اليهوديّة» وجوارها في أيّ وقت.

ويضيف متّى هنا (٢:١٣-١٥) أنّ يوسف هرب بيسوع وأُمّه إلى مصر خوفاً من هيرودس «لكي يتمّ ما قيل من الرّب بالنبيّ القائل: من مصر دعوت ابني» (هوشع ١١:١). ثم يقول بأنّ يوسف، عندما عاد بيسوع وأُمّه من مصر، «انصرف إلى نواحي الجليل، وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة، «لكي يتمّ ما قيل بالأنبياء أنّه سيدعى ناصرياً.» وأنبياء «العهد القديم،» على ما نعلم، لم يأتوا بمثل هذه النبوءة بشأن المسيح. ولعلّ هذه النبوءة اخْتُلِقَت لتفسِّر لقب «النّاصري» الذي كان يسوع يُعرف به.

يتبيّن مما سبق أنّ القصّة المرويّة في إنجيل متّى عن ولادة

يسوع ليس فيها شيء من التاريخ، بل هي مستوحاة برُمّتها من أقوال أنبياء إسرائيل بشأن المسيح الذي بشّروا بقدومه مخلِّصاً لشعبهم. والذي ينطبق على هذه القصّة ينطبق على روايات أخرى للأناجيل عن يسوع، نقتطف منها أربعاً على سبيل المثال:

١ – في إنجيل لوقا (٢:٤١–٥٢) أنّ يسوع ذهب إلى أورشليم برفقة أبويه عندما كان لا يزال حدثاً، واجتمع بالحكماء في الهيكل، فأدهشهم بما أبداه من الفهم في حديثه معهم. ثمّ ينتهي لوقا إلى القول: «وأمّا يسوع، فكان يتقدّم في الحكمة والقامة والنعمة عند اللّه والناس.» وما هذا إلاّ اقتباس – وإنْ بقدرٍ من التصرّف – ممّا ورد في «العهد القديم» في وصف حداثة صموئيل، وهو الأوّل والرّائد بين أنبياء إسرائيل، بالقول: «وكبر الصبي... عند الربّ... فتزايد نموّاً وصلاحاً لدى الربّ والناس أيضاً» (سفر صموئيل الأوّل ٢:٢١، ٢٦). ويتبيّن من ذلك أنّ القصّة التي يرويها لوقا وحده عن لقاء يسوع الحدث مع حكماء الهيكل ما هي إلاّ محاولة خفيّة للرّبط بين بداية أمره وبداية أمر صموئيل. وفي إنجيل لوقا محاولة أخرى خفيّة لمثل هذا الرّبط. إذ إنّ التسبيحة الواردة في هذا الإنجيل على لسان أُمّ يسوع وهي حُبلى به، والتي مطلعها «تُعظّم نفسي الرب...» (لوقا ١:٤٦–٥٥)، ما هي إلاّ إعادة صياغة للتسبيحة التي ترد في سفر صموئيل الأوّل (٢:١–١٠) على لسان أُمّ النبي صموئيل بعد أن ولدته، والتي مطلعها «فَرِحَ قلبي بالربّ....»

٢ – في أناجيل متّى (٤:١–١١) ومرقس (١:١٢–١٣) ولوقا (٤:١–١٣) أنّ يسوع قضى أربعين يوماً صائماً في البريّة قبل أنْ بدأ بدعوته. وعندما اشتدّ به الجوع، على ما يقوله إنجيل متّى تفصيلاً، جاءه إبليس ليجرّبه. فردّ يسوع على التجربة الأولى بالقول «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمة تخرج من فم اللّه» (قابل مع سفر التثنية ٨:٣)، وعلى الثانية بالقول «لا تجرّب الربّ إلهك» (قابل مع سفر التثنية ٦:١٦)، وعلى الثالثة بالقول «للربّ إلهك تسجد وإيّاه وحده تعبد» (قابل مع سفر التثنية ٦:١٣). ويتبيّن من ذلك أنّ قصّة تجربة يسوع من إبليس قبل بدايته بدعوته ما هي إلاّ محاولة باطنيّة للرّبط بين شخصه وبين شريعة موسى كما هي واردة في سفر التثنية، وذلك للإيحاء بأنّ يسوع ما جاء إلاّ لتكتمل الشريعة به.

٣ – في إنجيل متّى (٢٦:١٥؛ ٢٧:٣–٨) أنّ أحد تلاميذ يسوع – وهو المدعو يهوذا الإسخريوطي – تسلّم «ثلاثين من الفضّة» من الكهنة اليهود ثمناً لخيانة معلّمه وتسليمه لهم. وقصّة «الثلاثين من الفضّة» هذه مستوحاة من كلام النبي زكريّا، إذ يقول بلسان المسيح الموعود لبني إسرائيل: «فوَزَنوا أُجرتي ثلاثين من الفضّة» (زكريّا ١١:١٢). والواقع هو أنّ متّى يشير إلى هذا القول في نهاية قصّته، ناسباً إيّاه إلى النبي إرميا بدلاً من النبي زكريّا. أضف أنّ قصّة خيانة يهوذا الإسخريوطي ليسوع – وهي التي تتّفق عليها الأناجيل الأربعة –

فيها نظر، لكونها غير مقنعة أساساً. وسوف نعالج موضوع يهوذا الإسخريوطي في فصل مستقلّ.

٤ – في إنجيل يوحنّا (١٩:٢٣–٢٤) أنّ العساكر الرّومانيّين الذين قاموا بصَلب يسوع أخذوا ثيابه واقتسموها بينهم. لكنّهم لم يتمكنّوا من اقتسام قميصه لكونه منسوجاً في قطعة واحدة، فاقترعوا عليه «ليتمّ الكتاب القائل: اقتسموا ثيابي بينهم، وعلى لباسي ألقوا قرعة» (سفر المزامير ١٨:٢٢). والواضح أنّ قصّة اقتسام العساكر الرّومانيّين لثياب يسوع، واقتراعهم على قميصه، هي نسيج باطنيّ حول هذا القول المقتبس عن سفر المزامير.

وفي حديث يوحنّا عن نهاية يسوع، كما في غيره من الأناجيل، مقاطع أخرى منسوجة حول مقاطع من «العهد القديم،» نقتصر على ذكرها تحاشياً للملل. لكنْ تبقى إشارات عابرة ومتفرّقة، في هذا الإنجيل أو ذاك، تستوقف الانتباه، لكونها لا تضيف شيئاً إلى البرهان بأنّ يسوع ما هو إلاّ المسيح الموعود لبني إسرائيل. ولذلك يمكن اعتبارها صحيحة. ومن هذه الإشارات ما يأتي:

١ – يلقّب يسوع بـ «النجّار» (باليونانيّة tekton) في إنجيل مرقس (٦:٣)، وبـ «ابن النجّار» في إنجيل متّى (١٣:٥٥). وقد يعني ذلك أنّ يسوع، ووالده يوسف من قبله، كانا يعملان في النجارة. وربمّا أنّ «النجّار» (بالأراميّة

«نَجـارا») كان اسـم الفخـذ من سـلالـة داود (وتحـديـداً من سلالة زَرُبّابل) الذي كان ينتمي إليه يوسف وابنه يسوع، فتُرجم هذا الاسم إلى اليونانية tekton خطأً، بدلاً من أنْ يُثبت في شكله الأصليّ بالحرف اليوناني. وهذا، في رأيي، هو الأرجح.

٢ – كان ليسوع أتباع وأصدقاء من الرّجال والنساء معرّفون في الأناجيل بالاسم، وإنْ لم يكن بشكل متناسق بين الإنجيل والآخر أحياناً.

٣ – ينسب إنجيل يوحنّا إلى أُخوة يسوع قولهم له في بداية أمره: «انتقلْ من هنا واذهب إلى اليهودية...، لأنّه ليس أحد يعمل شيئاً في الخفاء وهو يريد أنْ يكون علانيّة.... أظهر نفسك للعالم» (يوحنا ٧:٣–٤). وفي هذا ما يشير إلى أنّ دعوة يسوع ابتدأت في مكان ما خارج «اليهوديّة،» أي خارج فلسطين وجوارها المباشر. وفي الأناجيل أنّ يسوع وتلاميذه الأوائل كانوا «جليليّين،» ومن ذلك الاعتقاد السائد أنّ «الجليل» (Galilaia) الذي جاءوا منه كان جليل فلسطين، وهو الذي كان جزءاً من أرض «اليهوديّة» في زمن الملك هيرودس الكبير، ثم صار «رُبعاً» منها بعد وفاته، يحكمه ابنه هيرودس أنتيباس بصفته «رئيس رُبع.» ولذلك، فلا بدّ أنّ «الجليل» الذي جاء منه يسوع أصلاً كان مكاناً غير الجليل الفلسطيني، صدف كونه يحمل الاسم نفسه. وفي يقيني أنّ هذا المكان هو

وادي جليل بمنطقة الطائف من الحجاز (أنظر تفصيل ذلك في الفصل ١٠).

٤ – «ابتدأ» يسوع بكرازته عندما كان في نحو الثلاثين من عمره (لوقا ٣:٢٣)، وذلك في «السنة الخامسة عشرة» من جلوس طيباريوس قيصر (١٤–٣٨م) على عرش روما (لوقا ٣:١)، أي في العام ٢٩م. وكان يوحنّا المعمدان آنذاك يكرز «بمعمودية التّوبة لمغفرة الخطايا» استعداداً لمجيء المسيح الموعود (لوقا ٣:١–١٨)، وكان يقوم بهذه الكرازة في وادي الأردن – بل تحديداً في «عبر الأردن»، أي إلى الشرق من النهر (يوحنّا ١: ٢٨؛ ٣: ٢٦؛١٠: ٤٠) – فقصده يسوع هناك واعتمد منه (لوقا ٣:٢١–٢٢). والشك المشروع في هذه المعلومات هو فقط في العمر المنسوب ليسوع عند «ابتداء» أمره، إذ من المعقول أن يكون في ذلك مقابلة مع ما يقوله «العهد القديم» عن بداية أمر يوسف (التكوين ٤١:٤٦) وداود (صموئيل الثاني ٥:٤) وهما في الثلاثين من العمر.

٥ – يفيد إنجيل يوحنّا (١:٢٨، ٤٣) أنّ يسوع «خرج» (باليونانيّة exerchomai) من «عبر الأردن» إلى الجليل بعد لقائه مع يوحنّا، ولم «يرجع» (hupostrepso) من هناك إلى الجليل، كما يقول إنجيل لوقا (٤:١). وإذا كان يوحنّا على حقّ، فذلك يعزّز القول بأنّ موقع «الجليل» من حيث أتى يسوع أصلاً، وكذلك «النّاصرة» حيث كان قد «تربّى»

(لوقا ٤: ١٤-١٦)، لم يكن في فلسطين. إذ كان على يسوع أنْ يعبر وادي الأردن، من ناحية الشّرق إلى ناحية الغرب، حتّى يتمكّن من الوصول إلى الجليل الذي بفلسطين. وهو الجليل الذي «خرج» إليه، كما يقول يوحنّا، وليس الذي «رجع» إليه، كما يقول لوقا.

٦ - عندما أُخبر يسوع بأنّ بيلاطُس البُنطي قضى على ثورة فريق من الغلاة الإسرائيليّين أو اليهود في الجليل الفلسطيني، خالطاً دمهم بدم ذبائحهم، لم يكن في ردّة فعله أيّة إدانة لبيلاطُس أو للرّومان (لوقا ١٣:١-٣).

٧ - عندما سُئِل يسوع عمّا إذا كان يجوز دفع الضرائب للدولة الرّومانيّة، أجاب: «أعطوا ما لقيصر لقيصر» (متّى ٢٢: ١٧-٢١؛ مرقس ١٢:١٤-١٦؛ لوقا٢٠:٢٢-٢٥)، ممّا يعني أنّه لم يكن يحرّض الشعب على العداء للحُكم الرّوماني، بل يعتبر هذا الحُكم مقبولاً من ناحية المبدأ.

٨ - من ناحية أخرى، كان يسوع يتهرّب من مقابلة هيرودس أنتيباس - وهو الذي كان في حينه «رئيس رُبْع» على الجليل، كما سبق - ويعتبره «ثعلباً» (لوقا ١٣:٣٢).

٩ - عندما قُتل يوحنّا المعمدان بأمر من هيرودس أنتيباس، وكان يسوع بعد في الجليل، وأُخبر بذلك، «انصرف من هناك...

إلى موضع خلاء» (متّى ١٣:١٤)، ممّا يعني أنّ الخوف من نوايا هيرودس تجاهه بدأ يدخل في روعه من تلك الساعة.

١٠ – عندما أُخبر يسوع، وهو بعد في الجليل، بأنّ هيرودس أنتيباس ينوي قتله، أجاب: «ينبغي أنْ أسير اليوم وغداً وما يليه (أي ثلاثة أيّام، انطلاقاً من الجليل)، لأنّه لا يجوز أنْ يهلك نبيّ إلاّ في أورشليم» (لوقا ٣٣:١٣).

١١ – يتحدّث إنجيل يوحنا عن دخول يسوع إلى أورشليم ليس مرّة واحدة، بل مرّتين بعد خروجه من الجليل. في المرّة الأولى دخل يسوع المدينة «لاظاهراً، بل كأنّه في الخفاء» (١٠:٧)، وذلك قبل «عيد المظال» بأيّام قليلة (٢:٧). « ولمّا كان العيد صعد... إلى الهيكل» وبدأ بدعوته هناك علناً (١٤:٧). واستمرّ يفعل ذلك حتى «عيد التجديد» (٢٢:١٠) عندما «تناول اليهود... حجارةً ليرجموه» (٣١:١٠)، و«طلبوا أيضاً أنْ يمسكوه، فخرج من أيديهم ومضى... إلى عبر الأردن، إلى المكان الذي كان يوحنّا يعمدّ فيه أوّلاً، ومكث هناك» (٣٩:١٠–٤٠). وهذا يعني أنّ إقامة يسوع في أورشليم خلال هذه الزيارة دامت شهرين أو أكثر بقليل، علماً بأنّ «عيد المظال» عند اليهود يقع بين شهري أيلول وتشرين الأوّل من السنة الميلادية، وأنّ «عيد التجديد» عندهم يقع بين شهري تشرين الثاني وكانون الأوّل امتداداً إلى كانون الثاني أحياناً، نظراً إلى الفرق بين التقويم اليهودي القمريّ

والتقويم الميلادي الشمسيّ. أمّا في المرّة الثانية، فكان دخول يسوع إلى أورشليم، قادماً من «عبر الأردن،» قبل عيد الفصح بخمسة أيّام (١٢،١:١٤). وذلك يعني أنّ مدّة إقامته في «عبر الأردن» للمرّة الثانية دامت ثلاثة أشهر تقريباً، علماً بأنّ «عيد الفصح» عند اليهود يقع بين شهري أذار ونيسان من السنة الميلاديّة. وعندما أعلن يسوع عن رغبته في العودة إلى «اليهوديّة» باتّجاه أورشليم، «قال له التلاميذ: يا معلّم، الآن كان اليهود يطلبون أنْ يرجموك، وتذهب أيضاً إلى هناك؟» (يوحنّا ٨:١١). لكنّ يسوع بقي مُصِرّاً على العودة. فقال أحد «التلاميذ،» وهو المدعو توما، لرفاقه: «لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه»(١٦:١١).

١٢ – عندما دخل يسوع أورشليم للمرّة الثّانية، قادماً من «عبر الأردن» عن طريق براري «اليهوديّة،» خرج فريق من أهل المدينة لملاقاته بالأهازيج باسم «ابن داود،» وصارت الجموع تهتف له: «مبارك الآتي باسم الربّ» (متّى ٩:٢١)، أو «مبارك الآتي باسم الربّ، مباركة مملكة أبينا داود الآتية» (مرقس ٩:١١–١٠)، أو «مبارك الملك الآتي باسم الربّ» (لوقا ٣٨:١٩)، أو «مبارك الآتي باسم الربّ، ملك إسرائيل» (يوحنّا ١٣:١٢). وفي ذلك إشارة إلى وجود قديم لفريق من الإسرائيليّين داخل المدينة من غير اليهود التابعين للصدّوقيّين أو الفرّيسيّين، ممّن كان يعتبر يسوع صاحب الحقّ الشرعي في المُطالبة بعرش داود.

١٣ – قام يسوع بأعمال عنف داخل الهيكل بعد دخوله أورشليم، فأثار بذلك حفيظة اليهود ضدّه (متّى ٢١:١٢–١٥؛ مرقس ١١:١٥–١٨؛ لوقا ١٩:٤٥–٤٨).

١٤ – حوكم يسوع أوّل الأمر أمام رئيس كهنة اليهود الذي اعتبره «مستوجب الموت» (مرقس ١٤:٥٣–٦٤)، ثمّ سُلِّم إلى بيلاطُس البُنطي للتصديق على هذا الحكم وتنفيذه (مرقس ١٤:١).

١٥ – كان هيرودس أنتيباس يقوم بزيارة إلى أورشليم في ذلك الوقت، فأرسل بيلاطُس يسوع إليه ليقوم هو أيضاً باستجوابه (لوقا ٢٣:٧–٩). وعلى الأثر «صار بيلاطُس وهيرودس صديقَين...، لأنهما كانا من قبل في عداوة بينهما» (لوقا ٢٣:١٢).

١٦ – كتب بيلاطُس البُنطي «عنواناً» على صليب يسوع مكتوباً عليه «يسوع النّاصري ملك اليهود» (وليس «ملك إسرائيل») بـ «العبرانيّة واليونانيّة واللاّتينيّة،» فغضب اليهود لذلك (يوحنا ١٩:١٩–٢٢؛ قابل مع متّى ٢٧:٣٧، مرقس ١٥:٢٦، ولوقا ٢٣:٣٨). ويبدو من هذا أنّ الأمر اختلط على بيلاطُس، فاعتبر اليهود وبني إسرائيل شيئاً واحداً.

والمُلاحَظ عموماً أنّ المعلومات الواردة في الأناجيل عن يسوع تكاد تكون محصورة في التحرّكات والنشاطات المتعلّقة

بدعوته. إذ ليس فيها ما يفيد شيئاً عن نشأة يسوع بعد الحديث عن ولادته وطفولته في إنجيلَي متّى ولوقا (وليس في إنجيلَي مرقس ويوحنّا). أضف أنّ الأناجيل جميعها تفيد بأنّ والدة يسوع كانت موجودة وعلى اتصال به، هي وأبناؤها وبناتها، طوال الوقت الذي كانت فيه دعوته قائمة. لكنّ أيّاً من الأناجيل لا يأتي على ذكر يوسف، والد يسوع، خلال هذه الحقبة، ممّا يعني أنّ يوسف كان قد توفّي في وقت ما قبل أنْ بدأ يسوع بدعوته.

* * * * *

من هذه الإشارات العابرة الواردة في الأناجيل الأربعة عن يسوع، أضف إليها تلك الواردة في رسائل بولس، وجميعها لا يقدّم ولا يؤخّر في مقولة «العهد الجديد» بشأنه، يصبح بالإمكان طرح تصوّر عام لسيرة يسوع، تأخذ في الاعتبار ما هو معروف عن الأوضاع في فلسطين وجوارها في أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات من القرن الميلادي الأوّل. وذلك على الوجه الآتي:

وُلد يسوع المعروف بـ «النجّار» أو بـ «ابن النجّار» (بالأراميّة «بَرْ نَجارا»)، والملقّب «النّاصري»، في مكان ما خارج أرض «اليهوديّة» بفلسطين، هو وادي جليل بمنطقة الطائف من الحجاز (أنظر الفصل ١٠). وكان والده يوسف يُعتبر في دياره سليلاً لزَرُبّابل بكراً عن بكر، ومن ثَمّ صاحب الحقّ في المُطالبة بعرش داود. ولا بدّ أنّ يوسف كان على جانب من الثراء، نظراً لرفعة مكانته. وُلد له بعد يسوع أربعة بنين هم يعقوب، وسمعان، ويوسي، ويهوذا، عدا البنات. وعند وفاته، انتقل حقّ المُطالبة بعرش إسرائيل

إلى بكره يسوع. ويسوع آنذاك في بداية شبابه، علماً بأنّه لم يكن قد تزوّج بعد.

وكانت الظروف للمُطالبة بعرش إسرائيل تبدو مؤاتية في حينه بسبب وجود كيان يهودي قائم في فلسطين يحكمه ملوك أو أشباه ملوك من الأُسرة الهيروديّة غير الإسرائيليّة الأصل. ومن اليهود في فلسطين، ومن هؤلاء كبار الفرّيسيّين، من كان منتفعاً من هؤلاء الهيروديّين ومتعاوناً معهم. ومنهم من كان متحفّظاً تجاههم نظراً إلى مسألة أصلهم، أو ناقماً عليهم بسبب مصانعتهم للرّومان وميلهم إلى التكيّف مع الحضارة الهيلينيّة. ومن الناقمين عليهم الفِرَق الإسرائيليّة غير اليهوديّة، وعلى رأس هؤلاء أنصار بيت داود الآملين بعودة عرش إسرائيل إلى أصحابه الشرعيّين. وكان في ذلك، من دون شكّ، ما شجّع يسوع على الإعلان عن نفسه مُطالباً بعرش إسرائيل فور وفاة والده، فأخذ يجمع حوله الأنصار لهذه الغاية، وأُخوته يدعمونه في مسعاه.

ولعلّ يسوع كان يأمل في البداية بأنْ يُعترف به ملكاً على إسرائيل حيث هو. لكنّ أُخوته أشاروا عليه بغير ذلك، مصرّين بأنّ عليه أنْ يذهب إلى «اليهوديّة» التي بفلسطين ويعلن عن نفسه وريثاً شرعيّاً لعرش داود هناك. وما لبث يسوع أنْ اقتنع بذلك، فخرج من دياره في العام ٢٨ أو ٢٩م قاصداً فلسطين، مصطحباً معه بعض الأنصار، وحاملاً ما كان قد ورثه من مال عن أبيه لينفق على مسعاه. وكان الوالي على «اليهوديّة» آنذاك بيلاطُس البُنطي (حَكَمَ ٢٧–٣٦ م)، في حين كان هيرودس أنتيباس، وهو ابن الملك هيرودس الكبير، حاكماً بلقب «رئيس رُبْع» (tetrarchos)

على منطقة «الجليل» وجوارها بشمال البلاد (حَكَمَ ٤ ق م-٣٩م): الأوّل يحاول النيل من استقلال الثاني وعرقلة مساعيه من دون التعرّض لشخصه مباشرة، والثاني يحاول إثبات استقلاله عن الأوّل قدر الإمكان من دون أنْ يقطع العلاقة معه.

وحدث في ذلك الوقت وجود داعية متنسّك في براري «عبر الأردن»» يتمتّع بشعبية دينيّة واسعة، ويُعرف بـ «يوحنّا المعمدان» لأنّه كان «يُعَمِّد» (أي « يغسل») أتباعه بالماء عند التحاقهم به. هو ينادي بقرب مجيء «المسيح» المنتظر وضرورة الاستعداد لمجيئه بالتّوبة عن الخطايا، والجموع تهرع إليه من «اليهوديّة» والجليل، معلنة عن توبتها. وكان يوحنّا يوجّه الانتقادات المريرة لهيرودس أنتيباس، لائماً إيّاه على سوء تصرّفاته، هو وغيره من أفراد أسرته، ومثيراً بذلك حفيظة هيرودس تجاهه.

وكان أوّل ما فعل يسوع عند وصوله إلى فلسطين أنّه قصد يوحنّا في «عبر الأردن» وتعمّد على يديه، ربمّا آملاً بأنْ ينال منه الدّعم. وبعد ذلك بدأ يتجوّل مع أصحابه في البلاد، مبتدءاً بالجليل، داعياً النّاس للاعتراف بكونه «المسيح» من بيت داود الذي كانوا ينتظرون، وصاحب الحقّ الشرعي في المُلك على إسرائيل. وبدأت الجموع من أنصار بيت داود المحليّين تلحق به، فتعاظم شأنه. ولعلّ بيلاطُس وجد في تصرّفات يوحنّا «المعمدان» ويسوع ما يُحرج هيرودس وينال من هيبته: الأوّل يبشّر بقرب مجيء «المسيح» ليعيد مُلك إسرائيل إلى أصحابه الشرعيّين، والثاني يُعلن بأنّه هو ذلك «المسيح» بالذات. فلم يتعرّض لأي من الرّجلين. ويسوع، من ناحيته، لم يتعرّض للحكم الرّوماني على البلاد، بل هو

أبدى الاستعداد للتعاون معه، أو للتقرّب منه في الأقلّ، ربمّا أملاً بأن يقبل به الرّومان ملكاً على إسرائيل في «اليهوديّة» بدلاً من «رؤساء الرّبع» من الأسرة الهيروديّة.

ولا بدّ من مَثَلَين عن نوع التبشير الذي قام به يسوع في الجليل الفلسطيني، داعياً الناس إلى الاعتراف به بأنّه المسيح الداودي الموعود، ومن ثَمَّ صاحب الحقّ الشرعي في المُلك على إسرائيل:

١ – دخل المجمع حسب عادته يوم السبت وقام ليقرأ. فدُفع إليه سفر إشَعياء النبيّ. ولمّا فتح السّفر وجد الموضع الذي كان مكتوباً فيه [عن المسيح الموعود]: «روح الربّ عليّ لأنّه مسحني لأبشّر المساكين؛ أرسلني [لأشفي المنكسري القلوب]؛ لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعُمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحريّة، وأكرز بِسَنَةِ الربّ المقبولة.» ثمّ طوى السفر وسلّمه إلى الخادم وجلس. وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه. [فقال لهم]: « إنّه اليوم قد تمّ هذا المكتوب في مسامعكم» (لوقا ٤:١٦–٢١).

٢ – لا تظنّوا أنيّ جِئتُ لأُلقي سلاماً على الأرض. ما جَئتُ لألقي سلاماً، بل سيفاً. فإنيّ جِئتُ لأُفرّق الإنسان ضدّ أبيه، والابنة ضدّ أُمّها،

والكَنَّة ضدّ حماتها. وأعداء الإنسان [الذي
يتبعني سيكونون] أهلَ بيته (متّى ١٠:
٣٤–٣٦؛ قابل مع لوقا ١٤:٢٦).

ولم يطل الوقت حتى أمر هيرودس أنتيباس بإلقاء القبض على يوحنّا «المعمدان» وسجنه، ثُمّ بقتله. وبعد ذلك بدأ يرسل في طلب يسوع، مكرّراً الطلب المرّة بعد المرّة. ودخل في روع يسوع أنّ هيرودس ينوي له الشرّ، هو أيضاً، ففرّ مع المقرّبين من أنصاره من الجليل إلى مخابئ آمنة في براري «عبر الأردن» و «اليهوديّة.» وما لبث يسوع أنْ احتار فيما يفعل بعد هربه من وجه هيرودس أنتيباس. فإمّا أنْ يترك دعوته في فلسطين ويعود إلى دياره في الحجاز مكسوفاً، أو أنْ يتوجّه إلى أورشليم مجازفاً ليعلن عن نفسه ملكاً على إسرائيل هناك، متّكلاً على عدم معارضة الرّومان له.

وأخيراً، وعلى الرّغم من نصح «تلاميذه» له بالتروّي، قرّر يسوع أنْ يجازف بمحاولة الدّخول إلى أورشليم لإعلان نفسه ملكاً على إسرائيل فيها. دخل المدينة في المرّة الأولى خلسةً، ثُمّ أخذ يعرض قضيّته علناً في الهيكل إلى أنْ بدأ اليهود هناك يهدّدونه بالقتل، فخرج من أورشليم عائداً إلى مخابئه في «عبر الأردن.» ولكنْ ما لبث أنْ قام بمجازفة ثانية دخل فيها المدينة علناً، فقابله أنصاره هناك بالهتافات. وبعد ذلك دخل الهيكل، حيث اصطدم باليهود مواجهةً. ونتيجة لذلك، أُلقي عليه القبض، ومَثُل أمام رئيس كهنة اليهود للمحاكمة، فحُكم عليه بالموت، وسُلّم إلى الوالي الرّوماني بيلاطُس البُنطي لينفّذ هذا الحكم عليه.

وتردّد بيلاطُس البُنطي في تلبية رغبة اليهود هذه في البداية، لكنّه مالبث أنْ انصاع لها، ربّما خوفاً من أنْ تتحوّل نقمة اليهود على يسوع إلى نقمة عليه كَوالٍ على «اليهوديّة.» ولعلّ بيلاطُس اعتبر أنّ بإمكانه التوصّل إلى تسوية سياسيّة مناسبة له، بينه وبين هيرودس أنتيباس، على حساب يسوع، إذا هو صدّق على الحكم اليهودي باعدامه. فسلّمه للموت على الصليب. فهل كانت هذه نهاية قصّة يسوع؟ بل، وهل لأية قصّة من هذا النوع نهاية؟

٥

محاكمة يسوع

قُبض على يسوع، واقتيد أمام رئيس كهنة اليهود، فحُكِم عليه بالموت. ثمّ سُلِّم إلى الوالي الرّوماني بيلاطُس البُنطي للتصديق على هذا الحكم وتنفيذه. وكانت التهمة الموجّهة إلى يسوع هي ادعاءه بأنّه «المسيح»، أي صاحب الحقّ بعرش اسرائيل، وأنّه من ثَمَّ «ابن اللّه» حسب الوصف التقليدي للمسيح الداودي الموعود. والأناجيل الأربعة تجمع على ذلك.

يقول إنجيل مرقس (١٤:٥٣–٦٥؛ ١٥:١–٢٠):

> مضوا بيسوع إلى رئيس الكهنة، فاجتمع معه جميع رؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة.... وكان رؤساء الكهنة والمجمع كلّه يطلبون شهادة على يسوع ليقتلوه، فلم يجدوا. لأنّ كثيرين شهدوا عليه زوراً ولم تتَّفِق شهاداتهم.... فقام رئيس الكهنة في الوسط وسأل يسوع

قائلاً: «أما تجيب بشيء؟ ماذا يشهد به هؤلاء عليك؟» أمّا هو فكان ساكتاً ولم يجب بشيء. فسأله رئيس الكهنة أيضاً وقال له: «أأنت المسيح ابن المبارك؟» فقال يسوع: «أنا هو.» .... فمزّق رئيس الكهنة ثيابه وقال: «ما حاجتنا بعد إلى شهود؟ قد سمعتم التجاديف. ما رأيكم؟» فالجميع حكموا عليه أنّه مستوجب الموت. فابتدأ قوم يبصقون عليه ويغطّون وجهه ويلكمونه ويقولون له: «تنبّأ.» وكان الخدّام يلطمونه.

وللوقت في الصبّاح تشاورٍ رؤساء الكهنة والشّيوخ والكتبة والمجمع كله، فأوثقوا يسوع ومضوا به، وأسلموه إلى بيلاطُس. فسأله بيلاطُس: « أنت ملك اليهود؟» فأجاب وقال له: «أنت تقول.» وكان رؤساء الكهنة يشتكون عليه كثيراً، فسأله بيلاطُس أيضاً قائلاً: «أما تجيب بشيء؟ أنظر كم يشهدون عليك.» فلم يُجب يسوع أيضاً بشيء، حتى تعجّب بيلاطُس.

وكان يُطلِق لهم في كلّ عيد أسيراً واحداً، مَن طلبوه. وكان المسمّى باراباس موثقاً مع رفقائه في الفتنة، الذين في الفتنة فعلوا قتلاً. فصرخ الجمع وابتدأوا يطلبون [أنْ يفعل] كما كان دائماً يفعل لهم. فأجابهم بيلاطُس قائلاً: «أتريدون أنْ أُطلِق لكم ملك اليهود؟» لأنّه عرف أنّ رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسداً. فهيّج رؤساء الكهنة الجمع لكي يُطلِق

> لهم بالحري باراباس. فأجاب بيلاطُس أيضاً وقال لهم: «فماذا تريدون أن أفعل بالذي تدعونه ملك اليهود؟» فصرخوا أيضاً: «اصلِبْهُ!» فقال لهم بيلاطُس: «وأي شرٍّ عمل؟» فازدادوا جداً صراخاً: «اصلِبْهُ!» فبيلاطُس، إذ كان يريد أنْ يعمل للجمع ما يرضيهم، أطلق لهم باراباس، وأسلم يسوع بعدما جَلَدَهُ ليُصْلَب.
> فمضى به العسكر إلى داخل الدّار التي هي دار الولاية، وجمعوا كلّ الكتيبة. وألبسوه أرجواناً، وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه عليه. وابتدأوا يسلّمون عليه [قائلين]: «السّلام يا ملك اليهود!» وكانوا يضربونه على رأسه بقصبة، ويبصقون عليه، ثُمّ يسجدون له جاثين على ركبهم. وبعدما استهزأوا به، نزعوا عنه الأرجوان، وألبسوه ثيابه، ثُمّ خرجوا به ليصلبوه.

ولا يختلف إنجيل متّى (٢٦:٥٧–٦٧؛ ٢٧:١، ١١–٣١) عن إنجيل مرقس في روايته لمحاكمة يسوع إلاّ في بعض التفاصيل. إذ إنّه يعرّف رئيس الكهنة، مثلاً، بأنّه المدعو قيافا. وهو يروي السؤال الذي وجّهه قيافا المذكور إلى يسوع، وجواب يسوع عليه، على الوجه الآتي (٢٦:٦٣–٦٤):

> أجاب رئيس الكهنة وقال له: «استحلفك باللّه الحيّ أنْ تقول [لنا] هل أنت المسيح ابن اللّه؟ قال له يسوع: «أنت قُلت.»....

أما إنجيل لوقا (٢٢:٥٤، ٦٦–٧١؛ ٢٣:١–٢٥) فيقول:

أخذوه وساقوه، وأدخلوه إلى بيت رئيس الكهنة.... والرّجال الذين كانوا ضابطين يسوع كانوا يستهزئون به وهم يجلدونه.... ولمّا كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب، رؤساء الكهنة والكتبة، وأصعدوه إلى مجمعهم قائلين: «إنْ كنت أنت المسيح، فقُل لنا.» فقال لهم: «إنْ قُلتُ لكم لا تصدّقون، وإنْ سألت لا تجيبونني ولا تطلقونني.».... فقال الجميع: «أفأنت ابن اللّه؟» فقال لهم: «أنتم تقولون إنيّ أنا هو.» فقالوا: «ما حاجتنا بعد إلى شهادة، لأنّنا نحن سمعنا من فمه.»

فقام كلّ جمهورهم وجاءوا به إلى بيلاطُس. وابتدأوا يشتكون عليه قائلين: «إنّنا وجدنا هذا يفسد الأمّة، ويمنع أنْ تُعطى جزيةٌ لقيصر، قائلاً إنّه هو مسيحٌ ملكٌ.» فسأله بيلاطُس قائلاً: «أنت ملك اليهود؟» فأجابه وقال: «أنت تقول.» فقال بيلاطُس لرؤساء الكهنة والجموع: «إنّي لا أجد علّة في هذا الإنسان.» فكانوا يشدّدون قائلين: «إنّه يهيّج الشعب، وهو يعلّم في كل اليهوديّة، مُبتدِئاً من الجليل إلى هنا.» فلمّا سمع بيلاطُس [ذكر] الجليل، سأل هل الرّجل جليليّ. وحين علم أنّه من سلطنة هيرودس

> [أنتيباس]، أرسله إلى هيرودس، إذ كان هو أيضاً تلك الأيام في أورشليم [بسبب عيد الفصح]. وأمّا هيرودس، فلمّا رأى يسوع فرح جداً، لأنّه كان يريد من [زمان] طويل أن يراه.... وسأله بكلام كثير، فلم يُجبْهُ بشيء.... فاحتقره هيرودس مع عسكره، واستهزأ به، وألبسه لباساً لامعاً، وردّه إلى بيلاطُس.... فدعا بيلاطُس رؤساء الكهنة، والعظماء، والشعب.... فكانوا يلجّون عليه بأصوات عظيمة طالبين أنْ يُصلَب.... فحكم بيلاطُس أنْ تكون طلبتهم...، وأسلم يسوع لمشيئتهم.

نأتي أخيراً إلى شهادة إنجيل يوحنّا عن محاكمة يسوع (يوحنّا ١٨: ١٢-٤٠؛ ١٩: ١-١٦). ويستفاد من هذه الشهادة أنّ يوحنّا (وهو الذي يسمّي نفسه في إنجيله «التلميذ الذي كان يسوع يحبّه،» أو «التلميذ الآخر») كان معروفاً عند رئيس الكهنة، فدخل مع يسوع إلى داره، حيث صارت المحاكمة:

> ثُمّ أنّ الجند والقائد وخُدّام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه، ومضوا به إلى حنان أوّلاً، لأنّه كان حما قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السّنة.... وكان سمعان بطرس والتلميذ الآخر يتبعان يسوع. وكان التلميذ الآخر معروفاً عند رئيس الكهنة، فدخل مع يسوع إلى دار رئيس الكهنة.... فسأل رئيس

الكهنة يسوع عن تلاميذه، وعن تعليمه. أجابه يسوع: «أنا كلّمت العالم علانيّة. أنا علّمت كلّ حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود دائماً، وفي الخفاء لم أتكلّم بشيء. لماذا تسألني [أنا]؟ اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلّمتهم....» ولمّا قال هذا لطم يسوع واحدٌ من الخُدّام كان واقفاً، قائلاً: «أهكذا تجاوب رئيس الكهنة؟» أجابه يسوع: «إنْ كنت قد تكلّمت رديّاً، فاشهد على الرديّ؛ وإنْ حسناً، فلماذا تضربني؟ وكان حنان قد أرسله موثقاً إلى قيافا رئيس الكهنة....

ثُمّ جاءوا بيسوع من عند قيافا إلى دار الولاية. وكان صبحٌ.... فخرج بيلاطُس إليهم وقال: «أيّة شكاية تقدّمون على هذا الإنسان؟» أجابوا وقالوا له: «لو لم يكن فاعل شرّ لما كنّا سلّمناه إليك.» فقال لهم بيلاطُس: «خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم.» فقال له اليهود: «لا يجوز لنا أنْ نقتل أحداً.»....

ثُمّ دخل بيلاطُس إلى دار الولاية ودعا يسوع وقال له: «أنت ملك اليهود؟» أجابه يسوع: «أَمِنْ ذاتك تقول هذا، أم آخرون قالوا لك عنّي؟» أجابه بيلاطُس: «ألعلّي أنا يهوديّ؟ أُمّتُك ورؤساء الكهنة أسلموك إليّ. ماذا فعلت؟» أجاب يسوع «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا

العالم لكان خُدّامي يجاهدون لكي لا أُسَلَّم إلى اليهود. ولكنْ الآن ليست مملكتي من هنا.» فقال له بيلاطُس: «أفأنت إذاً ملك؟» أجاب يسوع: «أنت تقول إنّي ملك. لهذا قد وُلدت أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحقّ. كلّ من هو مع الحقّ يسمع صوتي.» قال له بيلاطُس: «ما هو الحقّ؟»

ولمّا قال هذا خرج أيضاً إلى اليهود وقال لهم: «أنا لست أجد فيه عِلّة واحدة. ولكم عادة أنْ أُطلق لكم واحداً في الفصح. أفتريدون أنْ أُطلق لكم ملك اليهود؟» فصرخوا أيضاً جميعهم قائلين: «ليس هذا، بل براباس.» وكان باراباس لِصّاً.

فحينئذ أخذ بيلاطُس يسوع وجلده، وضفر العسكر إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه، وألبسوه ثوب أرجوان.... فخرج يسوع خارجاً وهو حامل إكليل الشوك وثوب الأرجوان. فقال لهم [بيلاطُس]: «هوّذا الإنسان.» فلمّا رآه رؤساء الكهنة والخُدّام صرخوا قائلين: «اصلبهُ! اصلبهُ!» قال لهم بيلاطُس: «خذوه أنتم واصلبوه، لأنّي لست أجد فيه عِلّة.» أجابه اليهود: «لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أنْ يموت لأنّه جعل نفسه ابن اللّه.».... فدخل أيضاً إلى دار الولاية وقال ليسوع: «من أين أنت؟» وأمّا يسوع فلم يعطه جواباً. فقال له بيلاطُس:

«أما تكلّمني؟ ألست تعلم أنّ لي سلطاناً أنْ أصلبك، وسلطاناً أنْ أطلقك؟».... ولكنّ اليهود كانوا يصرخون قائلين: «إنْ أطلقت هذا فلست محبّاً لقيصر. كلّ من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر.» فلمّا سمع بيلاطُس هذا القول أخرج يسوع، وجلس على كرسي الولاية...، فقال لليهود «هوّذا ملككم.» فصرخوا: «خُذْهُ، خُذْهُ! اصلبهُ!» قال لهم بيلاطُس: «أأصلب ملككم؟» أجاب رؤساء الكهنة:« ليس لنا ملكٌ إلاّ قيصر.» فحينئذ أسلمه إليهم ليُصلب.

هذه هي الرّوايات الأربع المتوفّرة بشأن محاكمة يسوع. ولا اختلاف بينها إلاّ في بعض التفاصيل. إذ تتفق كلُّها على أنّ الحكم على يسوع بالموت على الصليب جاء من رئيس كهنة اليهود، وأنّه هو وجماعته من الكهنة ذاتهم عمدوا إلى تحريض الشعب على مُطالبة الوالي الرّوماني بيلاطُس البُنطي بصَلبه. والكهنة هؤلاء كانوا من السلالة الصادوقيّة ذاتها التي جهدت، منذ زمن زَرُبّابل، إلى طمس قضيّة بيت داود وحقّه في المُطالبة بعرش إسرائيل. ولعلّ هؤلاء الصادوقيّين كانوا قد اطمأنّوا إلى أنّ مُطالبة هذا البيت بالعرش الإسرائيليّ قد انتهت مع نهاية زَرُبّابل، إلى أنْ فوجئوا بظهور سليلٍ له بعد قرون من الزمن يطالب بالعرش ذاته، فقرّروا القضاء عليه بشكل يجعله عبرة لغيره من السلالة الداوديّة.

٦

الشّاهدة على ما حدث

عندما أُلقي القبض على يسوع، تركه جميع تلاميذه وهربوا (مرقس ١٤:٥٠)، وبقوا مختبئين وراء «أبواب مغلقة» لعدّة أيّام، إنْ لم يكن لأسبوعين أو أكثر، خوفاً من اليهود (يوحنّا ٢٠:١٩، ٢٦). ولذلك لم يشهد أيٌّ منهم صَلبه، على ما يستفاد من إنجيلي مرقس ومتّى. وفي إنجيل لوقا أنّ رجالاً من «مَعارِف» (gnostoi) يسوع كانوا في جملة الذين شاهدوه مصلوباً «من بعيد.» لكنّ لوقا لا يذكُر وجود «تلاميذ» (mathetai) ليسوع بين هؤلاء «المعارِف.» والأناجيل الثلاثة هذه لا تذكر وجود أُمّ يسوع بين الجموع التي حضرت صَلبه. ولعلّها لم تغادر الجليل أصلاً مع يسوع، بل بقيت هناك مع أبنائها وبناتها. إنجيل يوحنّا وحده يذكر وجودها برفقة واحد من تلاميذ يسوع، كما سيأتي. لكنّ إنجيل يوحنّا يتّفق مع إنجيلَي مرقس ومتّى على أمر واحد، وهو كون المسمّاة مريم المجدليّة في جملة النساء اللّواتي شهدنَ صَلب يسوع. علماً

بأنّ إنجيل لوقا لا يذكر أيّة أسماء لرجال أو لنساء في روايته للحدث.

ويُستفاد من إنجيلَي مرقس ومتّى أنّ مريم المجدليّة كانت واحدة من النساء اللواتي كنّ «يخدمنَ» (diakoneo) يسوع حين كان في الجليل، فتبعنه بعد فراره من هناك إلى أنْ وصلنَ معه أورشليم، فبقين معه وشهدنَ صلبه «من بعيد» (مرقس ١٥:٤٠–٤١؛ متّى ٢٧:٥٥–٥٦). والأناجيل الأربعة تتّفق على أنّ مريمِ المجدليّة قامت في فجر اليوم الثالث بزيارة قبر يسوع لتجده فارغاً. مرقس (١:١٦) يقول بأنّها ذهبت لزيارة القبر مع اثنتين من رفيقاتها اللّواتي كنّ يخدمنَ يسوع معها؛ ومتّى (١:٢٨) يقول بأنّها ذهبت برفقة امرأة واحدة منهنّ؛ ولوقا يقول بأنّها ذهبت مع عدد منهنّ، اثنتان معرّفتان بالاسم. وأسماء رفيقات مريم المجدليّة في هذه الزيارة تختلف بين الإنجيل والآخر من الثلاثة. أمّا يوحنّا فيفيد بأنها قامت بزيارة القبر وحدها.

ويسود الاعتقاد بين العامّة بأنّ مريم المجدليّة كانت صديقة مقرّبة ليسوع، بل إنّها كانت عشيقة له. ولا يتّفق هذا الاعتقاد إطلاقاً مع ما تقوله الأناجيل الأربعة بشأنها. والإنجيل الوحيد الذي يذكر شيئاً، وإنْ قليلاً، عن بداية علاقة مريم المجدليّة بيسوع بوصفها واحدةً من النساء اللّواتي كنّ «يخدمنه» هو إنجيل لوقا حيث يقول (٨:١–٣):

> كان [يسوع يجول من مكان إلى آخر
> في الجليل]…. وبعض النساء
> [اللّواتي] كنّ قد شَفينَ من أرواح
> شرّيرة وأمراض – مريم التي تدعى

المجدليّة التي خرج منها سبعة شياطين، ويُوَنا امرأة خوزي وكيل هيرودس، وسَوْسَنّة، وأُخَر كثيرات – كنّ يخدمنه من أموالهنّ (باليونانيّة ek ton huparchonton autais أي «ممّا لهنّ»» أو «حسب قدرتهنّ»» وليس بالضرورة «من أموالهنّ»).

وقد سبق أنّ يسوع كان في بداية شبابه عندما بدأ يطالب بعرش إسرائيل بعد وفاة والده يوسف، وهو لايزال غير متزوّج، فكان من الطبيعي له أنْ يحتاج إلى نساء يخدمنه في جولاته، تبرّعاً أو لقاء أجر (والثاني هو الأرجح). وما كانت مريم المجدليّة – وهي التي «خرج منها سبعة شياطين»» ممّا يعني أنّها كانت تعاني في وقت ما من مرض عصبيّ – إلاّ واحدة من خادماته. وكان من الطبيعي لمريم المجدليّة – وهي الخادمة الأمينة ليسوع، على ما يظهر – أنْ تكون في جملة النساء من خادماته اللّواتي ذهبن لمشاهدة صَلبه «من بعيد» (كما يستفاد من أناجيل مرقس ومتّى ولوقا). وكان من الطبيعي لها أيضاً أنْ تقوم بزيارة قبره في الصباح المبكّر من اليوم الثالث لدفنه، وذلك سواء أذهبت إلى القبر مع رفيقات لها، أم لوحدها، كما يقول إنجيل يوحنّا. والإجماع بين الأناجيل على كون مريم المجدليّة حضرت صَلب يسوع، ثم قامت بزيارة قبره، يضفي عليها أهمّية خاصّة كشاهدة على ما حدث.

ننتقل من قضيّة مريم المجدليّة إلى قضيّة إنجيل يوحنّا.

والرأي السائد بالنسبة إلى هذا الإنجيل أنّ الشكل الذي وصلنا منه لم يكتمل قبل نهاية القرن الأوّل للميلاد، أي قرابة العام ١٠٠م. وكان القيّم على أتباع يسوع في أورشليم آنذاك قريباً ليسوع اسمه شمعون ابن كلوبا (في التهجئة اليونانيّة Klopas). ووالدة المذكور خالة يسوع المسمّاة مريم. هذا ما هو معروف عن شمعون ابن كلوبا من «تاريخ الكنيسة» ليوسابيوس القيسري (٣:١١، ٢٢، ٣٢، ٣٥، ٤:٥، ٢٢). ويُستفاد من هذا المصدر أنّ ولاية شمعون ابن كلوبا، ابن خالة يسوع، على «كنيسة أورشليم» ابتدأت قرابة العام ٦٢م، واستمرّت حتى العام ١٠٦ أو ١٠٧م.

وإنجيل يوحنّا منسوب إلى يوحنّا ابن زبدي، من «التلاميذ» الأربعة الأوائل الذين تبعوا يسوع. وهؤلاء الأربعة هم سمعان الملقّب بالأرامية «كيفا» أي «الصخر» (ومن ذلك اسمه اليوناني Petros بالمعنى ذاته، وفي التهجئة العربية «بطرس») وشقيقه أندراوس، والأخوان يعقوب ابن زبدي وشقيقه يوحنّا (مرقس ١:١٦–٢٠، متّى ٤:١٨–٢٢). ويتّضح من المقابلة بين الأناجيل الأربعة أنّ سمعان بطرس، في الأقلّ، كان على خلاف مع يعقوب ويوحنّا ابني زبدي حول من سيكون المتقدّم بين تلاميذ يسوع من بعده. ويبدو أنّ سمعان بطرس كان يصرّ على أنّ يسوع اختاره هو ليكون المتقدّم بين أتباعه منذ وقت مبكّر. هذا حسب أناجيل مرقس (٨:٢٧–٣٠) ولوقا (٩:١٨–٢١) ومتّى (١٦:١٣–١٩). يقول إنجيل متّى، مثلاً:

سأل [يسوع] تلاميذه قائلاً: «من يقول النّاس إنّي أنا...؟» فقالوا: «قومٌ

> يـوحـنّـا المعـمـدان، وآخـرون إيـلـيّـا، وآخرون إرميا أو واحد من الأنبياء.» قال لهم: «وأنتم من تقولون إنّي أنا؟» فأجاب سمعان بطرس وقال: «أنت هو المسيح ابن اللّه الحيّ.» فأجاب يسوع وقال له: «طوبى لك يا سمعان بن يونا (بالأراميّة «بَرْ يُونا،» أي «ابن اليمامة،» كناية عن «العزيز» أو «الحبيب»). وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس (باليونانيّة petros أي «صَخْر»)، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأُعطيك مفاتيح ملكوت السّموات. فكلّ ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السّموات، وكلّ ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً في السّموات.

وكان سمعان بطرس، على ما يبدو، يتّهم يعقوب ابن زبدي وأخاه يوحنّا بالجشع، بل وبالوقاحة في المطالبة بأنْ تكون لهما حظوة خاصّة لدى يسوع، وهي الحظوة التي كان يعتبرها بطرس من حقّه هو. يقول إنجيل مرقس، مثلاً (١٠:٣٥–٣٨؛ قابل مع متّى ٢٠:٢٠–٢٤):

> تقدّم... يعقوب ويوحنّا ابنا زبدي قائلين [ليسوع]: « يا معلّم، نريد أنْ تفعل لنا كلّ ما طلبنا. فقال لهما: «ماذا تريدان أنْ أفعل لكما؟ فقالا له: «أعطِنا أنْ نجلس واحد عن يمينك والآخر عن

يسارك في مجدك.» فقال لهما يسوع:
«لستما تعلمان ما تطلبان.»

ويبدو أنّ يعقوب ابن زبدي كان أوّل من خلف يسوع كرئيس لِـ «كنيسته» (أي لجماعته) في أورشليم. وقد يعني ذلك أنّ يعقوب كان – هو وأخوه يوحنّا – من نسل داود، وربّما من أقرباء يسوع. ولذلك اعتُبر أهلاً بأنْ يخلفه. لكنّه ما لبث أنْ قُتل (أعمال الرُّسل ١٢:١). ويبدو أنّ بطرس لم يجد نفسه قادراً على خلافته، ربّما لكونه غير داودي النسب. وكان بطرس في الوقت ذاته مصمّماً على أنْ لا تنتقل رئاسة «كنيسة» يسوع من يعقوب ابن زبدي إلى أخيه يوحنّا. فاستدعى يعقوب أخا يسوع، من حيث كان في ذلك الوقت، وجعله هو يتسلّم هذه الرئاسة. وكان الرّومان في تلك الأثناء قد أعادوا توحيد أجزاء من أرض «اليهوديّة»، منصّبين عليها هيرودس أغريبا (وهو ابن أخي هيرودس أنتيباس) ملكاً (٣٧–٤٤م). وهذا ما يقوله سفر أعمال الرُّسل بشأن مقتل يعقوب ابن زبدي وما فعله بطرس على الأثر (أعمال الرُّسل ١٢:١–١٧):

في ذلك الوقت مدّ هيرودس الملك يده
ليُسيء إلى أناس من الكنيسة. فقتل
يعقوب أخا يوحنّا بالسيف. وإذ رأى أنّ
ذلك يُرضي اليهود، عاد فقبض على
بطرس أيضاً.... ولمّا أمسكه وضعه في
السجن.... وكان قدّام الباب حُرّاس
يحرسون السجن. وإذا ملاك الربّ

أقبل...، فضرب جنب بطرس وأيقظه
قائلاً: «قم عاجلاً.... تمنطق والبس
نعليك...، [و] البس رداءك واتبعني.»
فخرج يتبعه.... وللوقت فارقه الملاك....
ثم جاء... إلى بيت مريم أم يوحنّا الملقّب
مرقس حيث كان كثيرون مجتمعين....
فأشار إليهم بيده ليسكتوا، وحدّثهم
كيف أخرجه الربّ من السجن. وقال:
«أخبروا يعقوب والأخوة (tois adelphois
إشارةً إلى أخوة يسوع، على ما يبدو)
بهذا. ثمّ خرج وذهب إلى موضع آخر.

ويتبيّن من رسالة بولس إلى أهل غلاطية (١٨:١-١٩؛ ١:٢-٩) أنّ بطرس شارك يعقوب أخا يسوع في تدبير أمور «الكنيسة» بأورشليم بعد تنصيب يعقوب رئيساً عليها. وبعد مدّة اضطُرّ الاثنان إلى القبول بيوحنّا أخي يعقوب ابن زبدي شريكاً ثالثاً لهما، تحاشياً لانقسام «الكنيسة» بينهما وبين يوحنّا الذي بقي له أتباعه. وفي العام ٦٢م تقريباً، قام اليهود بقتل يعقوب أخي يسوع رجماً بالحجارة، على ما يقوله المؤرّخ اليهودي المعاصر يوسيفُس (تاريخ اليهود٢٠:٩:١)، فانتقلت رئاسة كنيسة أورشليم إلى ابن خالته شمعون ابن كلويا (٦٢-١٠٧م تقريباً، كما سبق). أما يوحنّا ابن زبدي فبقي في أورشليم، على ما يبدو، إلى أنْ نُفي إلى جزيرة بَطْمُس، بالبحر الإيجي، في عهد الإمبراطور الرّوماني دوميتيانُس (حَكَمَ ٨١-٩٦م). وهو الإمبراطور الذي لاحق بيت داود، محاولاً القضاء على من تبقّى منه (أنظر ص ١٣٦). وبعد ذلك انتقل

يوحنّا إلى مدينة أَفَسُس بغرب الأناضول حيث توفّي في عهد الإمبراطور تراجانُس (حَكَمَ ٩٨-١١٧م)، على ما يقوله يوسابيوس القيسري في «تاريخ الكنيسة» (٢:٢٣:٣). وإذا نحن افترضنا بأنّ يوحنّا كان من عمر يسوع تقريباً، أي أنّه كان في بداية شبابه، ولم يبلغ سنّ العشرين بعد، عندما التحق بيسوع قرابة العام ٢٩م تقريباً، يكون قد توفّي وهو في سنّ يفوق الخامسة والتسعين، في وقت لم يكن أحد من تلاميذ يسوع بعد على قيد الحياة.

ولعلّ يوحنّا هو الذي كتب الإنجيل المنسوب إليه بشكله الأصليّ، وعلى الأرجح بالأراميّة، ثم جاء من تلاميذه من أخرج هذا الإنجيل بالشكل اليوناني الذي وصلنا منه. ومهما كانت الحقيقة بالنسبة إلى هذا الأمر، فمن الواضح أنّ هذا الإنجيل وضع ليُعزّز مكانة يوحنّا بين الرُّسل. وهو الإنجيل الذي لا يُعرِّف يوحنّا ولا مرّة واحدة بالاسم عند ذكره، بل يشير إليه عادةً بأنّه «التلميذ الذي كان يسوع يحبّه» (٢٦:١٩؛ ٢:٢٠؛ الخ.).

وإنجيل يوحنّا لا يذكر من الذين حضروا صَلب يسوع إلاّ أربعة كانوا واقفين «عند» الصليب، وليس «من بعيد» (يوحنّا ٢٥:١٩-٧٢):

> وكانت واقفات عند صليب يسوع (١) أُمُّه (كذا، من دون تسمية)، و(٢) أخت أُمِّه [التي هي] مريم زوجة كلوبا، و(٣) مريم المجدليّة. فلمّا رأى يسوع أمَّه (للمرّة الثانية من دون تسمية)، والتلميذ الذي كان يحبّه واقفاً [بقربها]، قال لأُمِّه (للمرّة الثالثة من

دون تسمية): «يا امرأة، هوّذا ابنُكِ.» ثُمّ
قال للتلميذ: «هوّذا أُمُّك.» ومن تلك السّاعة
أخذها التلميذ إلى خاصّته.

تبقى الأسئلة الآتية:
أوّلاً: لماذا ذكر إنجيل يوحنّا وحده حضور أمّ يسوع لصَلبه؟
ثانيا: لما ذكر هذا الإنجيل وحده وجود مريم زوجة كلوبا برفقة أُمّ يسوع في تلك المناسبة، موضحاً بأنها كانت أُختها؟
ثالثاً: لماذا ذكر هذا الإنجيل وحده وجود يوحنّا واقفاً «عند» الصليب قرب أُمّ يسوع، وهو الذي كان مختبئاً مع سائر تلاميذ يسوع في ذلك الوقت بشهادة هذا الإنجيل نفسه (٢٠:٢-١٠)؟
رابعاً وأخيراً: لماذا جاء يوحنّا بمريم المجدليّة التي كانت في جملة النساء «الخادمات» ليسوع اللّواتي شاهدن صَلبه «من بعيد،» على ما يتّفق عليه مرقس ومتّى ولوقا، فجعلها تقف مع أُمّ يسوع، وخالته مريم، وتلميذه يوحنّا «الذي كان يحبّه،» «عند» الصليب، بحيث كان بإمكان الأربعة منهم أنْ يسمعوا ما يقول وهو معلّق عليه؟

الاحتمال بالنسبة إلى هذه الأسئلة، على ما يتبيّن لي، هو كما يأتي:
١ - كان يوحنّا هو الذي اهتمّ بأُمّ يسوع من بعده، فجعلها تقف عند الصليب، وهو بجانبها، وجعل يسوع يقول لكلّ منهما كلاماً يعزّز مكانته بين قادة «الكنيسة» الأوائل.

وكان يوحنّا – وهو الذي عمّر أكثر من غيره من تلاميذ يسوع بعشرات السنين، كما سبق – يعرف، هو وغيره من التلاميذ، أنّ اسم أُمّ يسوع لم يكن مريم، في حين كان المسيحيّون قد أصبحوا مقتنعين مع مرور الزمن، لسبب ما، بأنّها كانت تُدعى مريم (أنظر الاجتهاد في هذه المسألة في الفصل ١٣). فذكر يوحنّا أُمّ يسوع من دون أنْ يسمّيها حتى لا يثير ضجّة حول الموضوع، لكنّه في الوقت ذاته أشار بوضوح إلى أنّ مريم كان اسم خالة يسوع ليفيد ضمناً بأنّ مريم لم يكن اسم أُمّه، من دون أنْ يصرّح بذلك.

٢ – عندما اكتملت كتابة إنجيل يوحنّا بقلمه، أو بقلم أحد تلاميذه وهو بعد حيّاً، على الأرجح، كان شمعون ابن كلوبا، الذي هو ابن مريم خالة يسوع، رئيساً لكنيسة أورشليم. فجعل يوحنّا (أو تلميذه) مريم أم شمعون المذكور تقف مع أُختها التي هي أُمّ يسوع «عند» الصليب في محاولة منه لاسترضاء ابنها شمعون والتقرّب إليه.

٣ – نظراً إلى الإجماع على كون مريم المجدليّة هي الشاهدة الأساسية على صَلب يسوع، وربمّا الشاهدة الوحيدة على قيامته من القبر، فإنّ يوحنّا (أو تلميذه) جاء بها «من بعيد» لتكون واقفةً «عند» الصليب مع أُمّ يسوع و «التلميذ الذي كان يحبّه،» ومن ثَمّ شاهدةً، ضمناً، على الكلام الذي وجّهه يسوع، حسب إنجيل يوحنّا، إلى كلّ منهما قبل أنْ يفارق الحياة.

أضف، بالمناسبة، أنّ مريم المجدليّة كانت الوحيدة التي شهدت بأنّها رأت يسوع بعينيها وتكلمّت معه بعد قيامته من الموت، وهو بعد عند قبره. هذا ما يتفرّد إنجيل يوحنّا بقوله. أمّا الأناجيل الأخرى، فتقول بأنّ النساء اللّواتي ذهبن لزيارة القبر في اليوم الثالث وجدنَ القبر فارغاً، ثُمّ التقينَ هناك بمن قال لهنّ: «قد قام؛ ليس هو ههنا» (مرقس ١٦:٦)؛ أو «ليس هو ههنا لأنّه قام» (متّى ٢٨:٦)؛ أو «لماذا تطلبنَ الحيّ بين الأموات؟ ليس هو ههنا، لكنّه قام» (لوقا ٢٤:٦). أمّا إنجيل يوحنّا، فيروي القصّة كالآتي (٢٠:١–١٨؛ قابل مع مرقس ١٦:٩):

في أوّل الأسبوعِ جاءت مريم المجدليّة
إلى القبر باكراً، والظلام باقٍ، فنظرت
حجراً مرفوعاً عن القبر.... انحنت إلى
القبر، فوجدت ملاكَين بثياب بيض
جالسَين واحداً عند الرأس والآخر عند
الرّجلين حيث كان يسوع موضوعاً.
فقالا لها: «يا امرأة، لماذا تبكين؟»
قالت لهما: «إنهم أخذوا سيدّي، ولست
أعلم أين وضعوه.» ولمّا قالت هذا
التفتت إلى الوراء، فنظرت يسوع
واقفاً، ولم تعلم أنّه يسوع. قال لها
يسوع: «يا امرأة، لماذا تبكين؟ ماذا
تطلبين؟» فظّنت تلك أنّه البستاني،
فقالت له: «يا سيّد، إنْ كنت أنت قد
حملته، فقُل لي أين وضعته، وأنا

آخذه.» قال لها يسوع: «يا مريم!» فالتفتت وقالت له: «رَبُّونِي!» الذي تفسيره «يامُعلِّم!» قال لها يسوع: «لا تلمسيني، لأنّي لم أصعد بعد إلى أبي؛ ولكنْ اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إنّي أصعد إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم. فجاءت مريم المجدليّة وأخبرت التلاميذ أنّها رأت الربّ، وأنّه قال لها هذا.

ولعلّ الواقع هو أنّ مريم المجدليّة نفسها كانت تروي هذه القصّة عن مشاهدتها الحيّة ليسوع قائماً من الموت، فكان على أساس ذلك أنْ بدأ تلاميذ يسوع وأتباعهم يقتنعون بقيامته، خاصّةً بعد أنْ صاروا هم أيضاً يشاهدونه حيّاً ويشهدون بذلك. وكان بولس – وهو اليهودي الذي لم يكن من تلاميذ يسوع أصلاً – آخر من تراءى له يسوع حيّاً، فاقتنع بقيامته وصار يبشّر بها. بل ذهب بولس إلى أبعد من ذلك، إذ إنّه رأى في شخص يسوع وموته على الصليب، ومنذ أنْ تراءى له، معاني كونيّة أعمق وأغنى بكثير من واقع ما حدث لهذا الأمير الداودي الشاب. وكان من تبشير بولس بـ «المسيح يسوع،» أو «يسوع المسيح،» على أنّه ما كان إلاّ ابن اللّه الحيّ، أنْ تحوّلت المُطالبة القديمة بحقّ بيت داود في المُلك على إسرائيل – وهوالحقّ الذي مات يسوع على الصليب شهيداً من أجله – إلى العقيدة المسيحية بشأن يسوع كما نعرفها اليوم. وهي المعرّفة في دستور الإيمان المسيحي الذي وضعه آباء الكنيسة عام ٣٢٥م في

مجمع نيقية، ثمّ نُقّح عام ٣٨١م في مجمع القسطنطينيّة، على النحو الآتي:

أنا أومن... بربٍّ واحد، يسوع المسيح، ابن اللّه الوحيد. المولود من الآب قبل كلّ الدهور. إلهٌ من إله . نورٌ من نور. إلهٌ حقّ من إلهٍ حقّ. مولود غير مخلوق. ذو جوهر واحد مع [اللّه] الآب. هو الذي به كان كلّ شيء. الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء. وتجسّد بالرّوح القدس من مريم العذراء. وصار إنساناً وصُلب على عهد بيلاطُس البُنطي. وتألّم وقبر وقام أيضاً في اليوم الثالث، على ما في الكتب المقدّسة. وصعد إلى السماء. وهو جالس عن يمين الآب. ويأتي أيضاً بمجدٍ ليَدين الأحياء والأموات. الذي ليس لِمُلْكِهِ نهاية....

٧

قضيّة يهوذا الإسخريوطي

في الأناجيل الأربعة إصرار على أنّ أحد التلاميذ المقرّبين ليسوع – وهو المدعو يهوذا الإسخريوطي (Ioudas Iskariotes)، أو يهوذا سمعان الإسخريوطي – كان هو الذي خانه وسلّمه إلى رؤساء الكهنة اليهود الذين حكموا عليه بالموت. وفي إنجيل متّى (٢٦:١٤–١٦) أنّ يهوذا المذكور تسلّم من رؤساء الكهنة «ثلاثين من الفِضّة» ثمناً لخيانته. (وفي انجيلَي مرقس ولوقا أيضاً أنّ يهوذا قبض ثمن خيانته ليسوع، لكن من دون تحديد المبلغ.) وقد سبق القول بأنّ تسلُّمَ يهوذا ثمناً لخيانته ليس إلاّ نسيجاً باطنيّاً حول المقطع من نبوءات زكريّا الذي يقول: «فَوَزَنوا أُجرتي ثلاثين من الفِضّة» (زكريّا ١١:١٢).

والواقع هو أنّ رؤساء الكهنة اليهود لم يكونوا بحاجة إلى خائن من بين تلاميذ يسوع ليتمكّنوا من القبض عليه. وهو الذي دخل أورشليم علانيّة، فلاقته الجموع من أنصاره هناك

بالهتافات لِـ «ابن داود» و «ملك إسرائيل.» والتصرّفات التي قام بها يسوع بعد ذلك في هيكل أورشليم – وهو الذي كان اليهود وغير اليهود من الإسرائيليّين، فيما عدا السامريّين وحدهم، يجتمعون فيه للعبادة أو للتشاور في الأمور العامّة – كانت هي أيضاً علانيّة. ولعلّ رؤساء الكهنة اليهود لم يحاولوا القبض على يسوع داخل الهيكل لمجرّد الخوف من الاصطدام بأنصاره هناك، ولذلك تحيّنوا الفرصة للقبض عليه خارج الهيكل.

وكان يسوع، في الليلة التي أُلقي فيها القبض عليه، قد تعشّى مع تلاميذه، وبعد ذلك خرج معهم للنزهة في منتزه عام خارج المدينة. فلحق به «الجند والقائد وخُدّام اليهود» (يوحنّا ١٨:١٢) وقبضوا عليه هناك. وفي إنجيل مرقس (١٤:٤٨–٤٩) أنّ يسوع قال لهؤلاء عندما وصلوا إليه:

> كأنّه على لصٍّ خرجتم بسيوفٍ وعُصِيٍّ لتأخذوني.
> كلّ يومٍ كنت معكم في الهيكل... ولم تمسكوني.

من هذا الكلام وحده يتبيّن بوضوح أنّ خيانة أحد تلاميذ يسوع له لم يكن لها أقلّ ضرورة للإمساك به. لكنّ الأناجيل الأربعة، بما فيها إنجيل مرقس، تصرّ على العكس. وإنجيل مرقس يروي قصّة خيانة يهوذا ليسوع على الوجه الآتي، ابتداءً من «العشاء الأخير» (مرقس ١٤:١٧–٢٠، ٢٦، ٤٣–٤٦):

> ولمّا كان المساء جاء مع الاثني عشر. وفيما
> هم مُتَّكئون يأكلون، قال يسوع: «الحقّ أقول

> لكم أنّ واحداً منكم يسلّمني. الآكل معي.»
> فابتدأوا يحزنون ويقولون له، واحداً فواحداً:
> «هل أنا؟» وآخر: «هل أنا؟» فأجاب وقال
> لهم: «[هو] واحدٌ من الاثني عشر الذي يغمس
> معي في الصحفة.».... [وبعد العشاء] سبّحوا
> وخرجوا إلى جبل الزيتون.... وللوقت... أقبل
> يهوذا [الإسخريوطي]، واحدٌ من الاثني عشر،
> ومعه جمعٌ كثيرٌ بسيوفٍ وعِصِيٍّ من عند
> رؤساء الكهنة والكتبة والشّيوخ. وكان
> مُسَلِّمُه قد أعطاهم علامةً قائلاً: «الذي أُقَبِّلُهُ
> هو هو. امسكوه وامضوا به بحرص.» فجاء
> للوقت وتقدّم إليه قائلاً: «يا سيّدي! يا
> سيّدي!» وقَبَّلَهُ. فألقوا أيديهم عليه وأمسكوه.

والغريب في الأمر أنّ إنجيل مرقس لا يذكر بأنّ يهوذا الإسخريوطي لم يكن في جملة الاثني عشر تلميذاً الذين رافقوا يسوع في خروجه للنزهة في جبل الزيتون بعد «العشاء الأخير.» والأمر ذاته ينطبق على إنجيلَي متّى ولوقا. بل يوحنّا وحده (١٣:٣٠) يشير إلى أنّ يهوذا خرج من العشاء قبل أنْ ينتهي. ولعلّ يوحنّا وجد ضرورةً لمثل هذه الإشارة، حتّى تستقيم قصّته عن خيانة يهوذا ليسوع.

فإذا كان يهوذا الإسخريوطي لم يغادر «العشاء الأخير» ليذهب ويأتي بالذين ألقوا القبض على يسوع، كما يُستفاد من أناجيل مرقس ومتّى ولوقا – وهو الأمر الذي لم تكن له أقلّ ضرورة أصلاً – فلماذا اختُلقت قصّة خيانته لمُعلّمه؟

في إنجيل يوحنّا إشارتان واضحتان إلى أنّ يهوذا الإسخريوطي كان مؤتَمناً على «الصندوق» الذي كان يسوع ينفق منه على نفسه وعلى تلاميذه. ففي حديثه عن المرأة التي دهنت قَدَمي يسوع بـ «طيب ناردين خالص» (أنظر الفصل ١١)، يضيف يوحنّا ما يأتي (١٢:٤-٦):

فقال واحدٌ من تلاميذه، وهو يهوذا سمعان الإسخريوطي...: «لماذا لم يُبَعْ هذا الطيب بثلاث مئة دينار ويُعْطَ للفُقراء؟» قال هذا ليس لأنه كان يُبالي بالفُقراء، بل لأنّه كان سارقاً، وكان الصندوق عنده، وكان يحمل ما يُلقى فيه.

وفي حديثه عن «العشاء الأخير» يشير يوحنّا إلى كون يهوذا هو المؤتَمن على صندوق يسوع على الوجه الآتي (١٣:٢١-٢٩):

قال [يسوع]: «الحقّ الحقّ أقول لكم إنّ واحداً منكم سيسلمني. فكان التلاميذ ينظرون بعضهم إلى بعض وهم مُحتارون في مَنْ قال عنه. وكان مُتكِئاً في حضن يسوع واحدٌ من تلاميذه كان يسوع يحبُّهُ (أيّ يوحنّا ذاته). فأَوْمأ سمعان بطرس أنْ يسأل مَنْ عسى أنْ يكون الذي قال عنه. فاتّكأ ذاك على صدر يسوع وقال: «يا سيّد، من هو؟» أجاب يسوع: «هو ذاك الذي أغمس أنا اللُّقمة

> وأُعطيه.» فغمس اللُّقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الإسخريوطي. فبعد اللُّقمة دخله الشيطان. فقال له يسوع: «ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة.» وأمّا هذا فلم يفهم أحدٌ من المتّكئين لماذا كلّمه به. لأنّ قوماً، إذ كان الصندوق مع يهوذا، ظنّوا أنّ يسوع قال له: «اشترِ ما نحتاج إليه للعيد.»

وقد سبق أنّ يوحنّا وسمعان بطرس كانا من أوّل التلاميذ الذين التحقوا بيسوع. وبقي كِلاهما من أقرب المقرَّبين إليه. وكانت بين الاثنين منافسةٌ بلغت حدّ الشجار أحياناً. لكنّ الشّيء الوحيد الذي بقي يجمع بينهما، على ما يبدو، كان استياؤهما المشترك من ائتِمان يسوع ليهوذا على صندوقه، بدلاً من واحد منهما. فصار الاثنان يبغضانه. وربمّا أنّ غيرهما من التلاميذ صار يبغضه أيضاً، لأنّه كان في قدرته أن يُلبّي طلباتهم للإنفاق، أو أنْ لا يلبّيها، كما يشاء، فيستاؤون منه إنْ هو امتنع حرصاً على المال الذي في أمانته. والبغض الذي كان يكنّه يوحنّا ليهوذا واضح كلّ الوضوح من وصفه إيّاه بأنّه كان لِصّاً يسرق من الصندوق الذي ائتُمِنَ عليه. وإنجيل يوحنّا، في الواقع، هو أكثر الأناجيل إصراراً على تخوين يهوذا. وفيه أنّ يسوع كان عارفاً «من البدء» بنِيّة يهوذا في الخيانة (٦:٦٤–٧١). ولو كان هذا الأمر صحيحاً، لما أوكل يسوع صندوق ماله إلى يهوذا أصلاً، ولما بقي موكِلاً هذا الصندوق إليه إلى النهاية.

ولو بقي يهوذا الإسخريوطي في أورشليم مع سائر التلاميذ بعد غياب يسوع عنهم، لما تمكّن أحدٌ منهم من اختلاق قصّة

خيانته. لكنّ واقع الأمر كان العكس. ولدينا روايتان بشأن مصير يهوذا بعد موت يسوع على الصليب. الأولى تأتي من إنجيل متّى، وهي تبدو مُختَلقة لكونها مبنيّةً على قضيّة «الثلاثين من الفضّة» (متّى ٢٧:٣–٥):

> لمّا رأى يهوذا... أنّ [يسوع] قد دِين، ندم وردّ الثلاثين من الفضّة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلاً: «قد أخطأت إذ سَلَّمتُ دماً بريئاً.... ثمّ مضى وخنق نفسه.

أمّا الرواية الثانية عن مصير يهوذا، فتأتي من سفر «أعمال الرُّسل» على لسان سمعان بطرس (أعمال الرُّسل ١:١٥–١٩):

> وفي تلك الأيّام قام بطرس في وسط التلاميذ... فقال: «أيّها الرّجال الأُخوة، كان ينبغي أنْ يتمّ المكتوب... عن يهوذا الذي صار دليلاً للّذين قبضوا على يسوع. إذ كان معدوداً بيننا، وصار له نصيبٌ في هذه الخدمة. فإنّ هذا اقتنى حقلاً من أُجرة الظلم، وإذ سقط على وجهه انشقّ من الوسط، فانسكبت أحشاؤه كلّها...، حتى دُعي ذلك الحقل في لغتهم حقَل دَما، أي حَقْلَ دَمٍ....

ويتبيّن من ذلك أنّ يهوذا كان عالماً ببغض سائر التلاميذ له، وخاصّةً بعض القادة منهم، من أمثال يوحنّا وسمعان بطرس.

فعندما صُلِبَ يسوع الذي كان يحميه من بغضهم، لم يشأ أنْ يبقى بينهم. فأخذ الصندوق الذي لديه وهرب، عائداً إلى بلاده في الحجاز (أنظر الفصل ١٠)، حيث اشترى بما تبقّى من المال في الصندوق حقلاً ليعتاش منه. هذا حسب رواية سمعان بطرس. أو لعلّه اشترى هذا الحقل من ماله الخاصّ. وفي الأصل اليوناني لسفر «أعمال الرُّسل» أنّ هذا الحقل لم يكن يسمّى بالأراميّة «حَقَل دَمَا» (بالتهجئة اليونانيّة chakeldama أو hakeldama) بل «أَكَل دَمَا» (akeldama)، وذلك في «لهجة» (dialektos) وليس في «لغة» (glossos) أهل جليل الحجاز (على ما اعتقد). وفي سفر«عروبيم» (٥٣ب) من التّلمود اليهودي أنّ «الجليليّين» كانوا يقلبون الحاء إلى همزة في لهجتهم، فيقولون «إمار» مثلاً، بدلاً من «حِمار.» ومن ذلك قولهم «أَكَل دَمَا» بدلاً من «حَقَل دَمَا،» أي «حقل الدّم.»

ومن الاجتهادات حول لقب يهوذا الذي هو بالتهجئة اليونانيّة Iskariotes هو أنّه في الأصل العبري/الأرامي «إيش قرياتا،» أي «رجل القَرْيَة» (اسم مكان). و « قَرْيَة» اليوم هي من قُرى بلاد عُتَيبة بوادي لِيَّة، من منطقة الطائف (أنظر الفصل١٠). ولعلّ يهوذا «القريوي» أو «القرياتي» (وليس «الإسخريوطي»)، عندما عاد من فلسطين إلى البلاد الحجازيّة التي جاء منها أصلاً – هو ويسوع وغيره من التلاميذ – اشترى حقلاً في دَمَاء (والاسم هو ذاته « دَمَا» بمعنى «الدّم» بالأراميّة)، من قرى الطائف بوادي ميسان، فاعتاش من هذا الحقل حتى مماته، بعيداً عن خصومه من التلاميذ الذين بقوا في أورشليم يختلقون عنه ما يختلقون من قصص.

٨

مَنْ هو بولس؟

تقوم الديانة المسيحيّة كما نعرفها اليوم على الأُسس اللاّهوتيّة التي وضعها لها الرّسول بولس (Paulos) بين العامين ٤٠ و٦٧م تقريباً. إذ إنّ بولس هو أوّل من جلّ «المسيح يسوع،» أو «يسوع المسيح،» عن كونه محض شخص مُطالب بالعرش الإسرائيلي الذي كان لجدّه داود، بل علّم بأنّه هو «صورة اللّه غير المنظور، بِكرُ كلّ خليقة، ... فيه خُلِقَ الكلّ، ما في السموات وما على الأرض، وما يُرى وما لا يُرى ...، الكلُّ به وله خُلق، الذي هو قبل كُلّ شيء، وفيه يقوم الكُلّ» (كولوسّي ١:١٥–١٧). فمن هو هذا الرّسول الذي عاصر يسوع من دون أنْ يكون واحداً من تلاميذه، بل ومن دون أنْ يلتقي به خلال حياته مرّة واحدة على الأرجح، ثم انتهى إلى الاعتراف به «ابناً» مجسِّداً للّه «الآب» في «جسم بشريّته» (كولوسّي ١:٢٢)؟

المعلومات المتوفرّة بشأن بولس تأتي من مصدرين: الأوّل، ما يذكره بولس عن نفسه في الرّسائل التي خلّفها. والثاني، ما يقوله

سفر «أعمال الرُّسل» بشأنه. وحيث يوجد تناقض بين المصدرين، فإنّ الأوّل يجب اعتباره الأوثق لكونه من قلم بولس نفسه.

وقد سبق أنّ الذي وضع إنجيل لوقا هو الشخص ذاته الذي وضع سفر « أعمال الرُّسل» مُلْحَقاً لهذا الإنجيل، كما هو واضح من المقدّمة لهذا السفر. غير أنّ مادّة سفر «أعمال الرُّسل» تتألّف من نوعين، نوع منهما هو محض رواية لأحداث، بما فيها تلك التي تتحدّث عن بولس بضمير الغائب، ونوع آخر من الواضح أنّه مذكّرات لأحد الذين رافقوا بولس في أسفاره في أرجاء الإمبراطورية الرّومانيّة، لكون الحديث فيه هو بضمير جمع المتكلّم، أي «نحن.» والمرجّح أنّ صاحب هذه المذكّرات هو لوقا الذي يصفه بولس بـ «الطبيب الحبيب» (كولوسّي ٤: ١٤)، ممّا يعني أنّه كان طبيبه الخاص الذي رافقه في جميع أسفاره.

ولعلّ الأصل في سفر «أعمال الرُّسل» هو حديث لوقا بصيغة جمع المتكلّم عن النشاط التبشيري الذي قام به بولس ورفاقه من «الرُّسل» التابعين له في العالم الرّوماني، ثم جاء من أضاف إلى هذا الأصل متحدّثاً بضمير الغائب عن أعمال كلٍّ من بولس وغيره من الرُّسل. هذا إذا كان لوقا هو الذي وضع الإنجيل الذي يحمل اسمه. ولعلّ الأصل في سفر «أعمال الرُّسل» هو الرّواية التي تعتمد ضمير الغائب، ثم جاء من أضاف إليها المقاطع من مذكّرات لوقا التي تتحدّث عن أسفار بولس بصيغة جمع المتكلّم، وهو ما أُرجّحه. وفي مثل هذه الحال لا يكون لوقا صاحب الإنجيل الذي يحمل اسمه.

ويُلاحَظ، على كلّ حال، بأنّ الحديث المرويّ عن أسفار بولس

في سفر «أعمال الرُّسل» لا يتناقض إطلاقاً مع ما يقوله بولس عن نفسه في الرّسائل التي كتبها. بل الذي يناقض بولس في محتويات هذا السّفر هو المقاطع التي تتحدّث عنه - وأحياناً تقتبس كلاماً منسوباً إليه افتراضاً - بصفة الغائب.

١ - يبدأ صاحب سفر «أعمال الرُّسل» بالكلام عن مُضطهِدٍ لأتباع يسوع في أورشليم اسمه «شاوُل» (١:٨). ثم يُعرِّف «شاوُل» هذا بأنّه هو ذاته «بولس» في مجرى الكلام حيث يقول، «أمّا شاوُل الذي هو بولس أيضاً» (Saulos de ho kai Paulos ٩:١٣)، من دون أنْ يعطي أيّ سبب لتغيير الاسم. ولا توجد أيّة إشارة في رسائل بولس إلى أنّه كان يسمّى في الأصل «شاوُل.» والأرجح هو أنّ «شاوُل» لم يكن هو ذاته بولس، بل رجلاً آخر من الذين اضطهدوا أتباع يسوع عند بداية أمرهم، فدمج صاحب «أعمال الرُّسل» في الهويّة بين الواحد والآخر.

٢ - يفيد سفر «أعمال الرُّسل» بأنّ بولس عرّف عن نفسه في إحدى المناسبات قائلاً: «أنا رجلٌ يهوديّ وُلدت في طرسوس [من أعمال] كيليكيّة، ولكنْ ربيت في أورشليم مؤدّباً عند رِجلي غَمَلائيل، واضطَهدتُ [أتباع يسوع] حتى الموت.... [ثُمّ] إلى دمشق ذهبت لآتي بالذين [منهم] هناك إلى أورشليم مقيّدين لكي يعاقبوا» (٢٢:٣-٥). أمّا بولس، فلا يذكر إطلاقاً في رسائله أنّه كان أصلاً من مدينة طرسوس بكيليكيّة (وهي البلاد الساحلية الفاصلة بين

بلاد الأناضول وشمال سورية، عند خليج الإسكندرون)، ومنها انتقل إلى أورشليم ليتدّرب في أصول الديانة اليهوديّة على يد المدعو غمَلائيل، ثمّ صار مضطهِداً لأتباع يسوع هناك، وذهب إلى دمشق في مهمّة متعلّقة بهذا الاضطهاد. بل الذي يتبيّن من كلامه عن نفسه في رسالته إلى أهل غلاطية أنّه كان ربّما من سكّان دمشق أصلاً. وهو لا يذكر أيّة إقامة له في أورشليم قبل العام الثالث من بدايته في التبشير بيسوع (أي قبل العام ٤٣م تقريباً). ولا هو يأتي على ذكر طرسوس إطلاقاً في رسائله. ولو كانت هذه المدينة هي مسقط رأسه في الواقع، لفعل. كما أنّه لا يذكر كيليكيّة إلاّ عرضاً في حديثه عن أولى المناطق التي قام بالتبشير فيها، وذلك من دون أنْ يشير إلى أنّه كان له أهل أو أقارب في تلك المنطقة (غلاطية ١:١٧-١٨، ٢١). أضف أنّ بولس لا يذكر في أيّة من رسائله أنّه تعلّم أصول الديانة اليهوديّة على يد شخص اسمه غمَلائيل. ولعلّ ما يقوله سفر «أعمال الرُّسل» عن بدايات بولس هو محض اختلاق. أو لعلّ الذي وُلد في طرسوس، وتربّى في أورشليم على يد غمَلائيل، هو شاوُل، وليس بولس، فجعل صاحب سفر «أعمال الرُّسل» شاوُل يذهب من أورشليم إلى دمشق كجزء من المحاولة لربط سيرته بسيرة بولس الذي كان موطنه بدمشق.

٣ – يفيد سفر أعمال الرُّسل، عن لسان بولس، بأنّ يسوع ظهر له وهو في طريقه من أورشليم إلى دمشق ليضطهِد أتباع

يسوع هناك؛ وأنّ بولس، عند وصوله إلى دمشق، التقى بـ «رجل تقيّ» اسمه حنانيا وتلقّى النُّصح منه. وبعد ذلك عاد إلى أورشليم لفترة قصيرة، ثُمّ بدأ تبشيره بين «الأمم بعيداً» (٢٢:٦-٢١). وبولس، في رسائله، لا يقرّ بفضل عليه لا من حنانيا، ولا من غيره، في هدايته إلى الحقيقة بشأن يسوع. بل هو يقول في رسالته إلى أهل غلاطية (١١:١-٢٠؛ ٢:١-١١):

> الإنجيل الذي بشرتُ به... لم أقبله من عند إنسان ولا عُلِّمته، بل بإعلان يسوع المسيح. فإنّكم قد سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهوديّة أني كنت اضطهِد كنيسة الله بإفراط وأتلفها. وكنت أتقدّم في الديانة اليهوديّة على كثيرين من أترابي.... ولكنْ لمّا سُرّ الله الذي أفرزني من بطن أميّ ودعاني بنعمته أنْ يُعلن ابنه فيّ لأبشّر به بين الأمم، للوقت لم استشر [أحداً]... ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرُّسل الذين قبلي، بل انطلقت إلى العربيّة (Arabia بمعنى بلاد العرب)، ثمّ رجعت أيضاً إلى دمشق. ثُمّ بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم لأتعرّف ببطرس، فمكثت عنده خمسة عشر يوماً؛ ولكنّني لم أرَ غيره من الرُّسل إلاّ يعقوب أخا الربّ [يسوع]. والذي أكتب به إليكم هوّذا قُدّام الله إني لست أكذب فيه....
> ثُمّ بعد أربع عشرة سنةَ صعدتُ أيضاً إلى

أورشليم... وعرضت... الإنجيل الذي أكرز به... على المُعْتَبرين [من الرُّسل هناك]... أنّهم شيء – مهما كانوا، لا فرق عندي.... فإنّ هؤلاء المعتبرين لم يشيروا عليّ بشيء.... يعقوب و[بطرس] ويوحنّا المعتبرون أنّهم أعمدة أعطوني... يمين الشركة لِنَكون نحن للأُمم (أي لغير بني إسرائيل)، وأمّا هم فللختان (أي لبني إسرائيل الذين كانوا يمارسون الختان). غير أنْ نذكر الفقراء [بينهم]. وهذا عينه كنت اعتنيت أنْ أفعله. ولكن لمّا أتى بطرس إلى أنطاكية قاومتُه مواجهةً.... لأنه قبلما أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم [من غير المختونين]، ولكنْ لمّا أتَوا كان يؤخّر ويفرز نفسه خائفاً من الذين هم من الختان.

من هذا الكلام الذي لبولس يُستنتج ما يأتي:

أوّلاً: أنّ بولس اهتدى إلى يسوع بنفسه، من دون مساعدة أحد من الرُّسل الذين عايشوا يسوع وكانوا من تلاميذه.

ثانياً: أنّه عندما بدأ بولس بتبشيره كان يعقوب أخو يسوع يُعتبر رئيساً للرُّسل الذين في أورشليم، من أتباع يسوع الأوائل، يعاونه بطرس في تدبير شؤون جماعته. وبعد ذلك صار يوحنّا أيضاً واحداً من الثلاثة «المُعْتَبرين» بين هؤلاء الرُّسل.

ثالثاً: أنّ يعقوب وبطرس ويوحنّا كانوا يوجّهون تبشيرهم في البداية إلى الإسرائيليّين وليس إلى غيرهم، بينما وجّه بولس

تبشيره منذ البداية إلى «الأُمم» التي لم تكن تمارس الختان.

رابعاً: أنّ بولس كان يزدري بالرُّسل الذين في أورشليم، وهو الذي قال عن قادتهم «مهما كانوا، لا فرق عندي» (غلاطية ٢:٥)، واصفاً إيّاهم ليس بـ «الأعمدة»، بل بـ «المُعْتَبَرون أنّهم أعمدة» (غلاطية ٢:٨). وهو يشدّد بأنّه لم يتعلّم شيئاً من هؤلاء. وهم الذين يصفهم في مكان آخر بالرُّسل الذين كانوا يُعْتَبرون «متفوّقين» (huperlian) وإنْ كانوا في الواقع «رُسُلاً كذبة... ماكرين، مغيّرين شكلهم إلى شبه رُسل المسيح» (٢ كورنثوس ١١:٥، ١٣).

خامساً: أنّ بولس انتهى إلى إعطاء يعقوب وبطرس ويوحنّا مالاً لِـ «الفقراء» (أي لَهُم، أو لجماعتهم، بمعنى الرَّشوة) لكي يكفوّا عن مقاومة تبشيره، ولضمان الحدّ الأدنى من حسن النيّة منهم تجاهه.

سادساً، وأهمّ ما في الأمر: أنّ بولس يصرّ على كونه لم يستشر أحداً – لا حنانيا في دمشق، ولا الرُّسل الذين بأورشليم – بعد أنْ تجلّت له الحقيقة بشأن يسوع شخصيّاً. بل هو ذهب مباشرة إلى «العربيّة» (Arabia هو الاسم الجغرافي الذي كان يطلق آنذاك على الأراضي الممتدّة من المشارف الجنوبيّة لدمشق إلى أقصى الجنوب من شبه الجزيرة العربيّة). ومن «العربيّة» هذه عاد إلى دمشق. وهو لم يذهب لمقابلة بطرس ويعقوب أخي يسوع في أورشليم إلاّ بعد ثلاث سنوات من عودته من «العربيّة.» هذا ما يقوله بولس بكلّ وضوح، بل ويقيم القسم عليه.

وما يقوله بولس شخصيّاً عن نفسه يتلخّص كما يأتي:

١– كان بولس «عبرانيّاً» و«إسرائيليّاً» (٢ كورنثوس

٢٢:١١)، و«فرّيسيّاً» من سبط بنيامين (فيلبّي٣:٥)، متقدّماً في «الديانة اليهوديّة» (Ioudaismos) على الكثيرين من أقرانه (غلاطية ١:١٤). وكونه من سبط بنيامين قد يُفسِّر عدم اكتراثه بكون يسوع سليلاً لداود من سبط يهوذا. وهو الأمر الذي لا يذكره إلاّ عَرَضاً، كما سبق (أنظر الفصل ٤).

٢ – كان بولس رجلاً متعلّماً، ضالعاً في عدّة لغات (١ كورنثوس ١٤:٨)، وذلك على عكس الرُّسل من تلاميذ يسوع الذين كانوا «جليليّين» بسطاء وعديمي العلم (أعمال الرُّسل ٢: ٧؛ ٤:١٣).

٣ – اضطهد بولس «كنيسة اللّه» في البداية، بل أفرط في اضطهادها (غلاطية ١:١٣)، إلى أنْ «سُرَّ اللّه» أنْ يُعلن «ابنه» فيه ليبشّر به بين الأمم من البشر، بغضّ النظر عن أُصولهم (غلاطية ١:١٥)، وسواءً أكانوا يمارسون الختان أمْ لا يمارسونه.

٤ – جرى تحوّل بولس من مُضطهِدٍ لأتباع يسوع إلى رسولٍ يبشّر به ابناً للّه عن طريق رؤيا يوجزها هو، شخصيّاً، على الوجه الآتي (٢ كورنثوس ١٢:٢–٤):

أعرف إنساناً (إشارةً إلى نفسه)... – أفي الجسد أم خارج الجسد (أي في الواقع أم في

الخَيال)، لست أعلم؛ اللّه يعلم – أنّه اختُطف
إلى الفردوس، وسمع [هناك] كلمات لا يُنطَق
بها، ولا يسوغ لإنسان أنْ يتكلّم بها.

وكان بعد هذه الرؤيا أنْ توجّه بولس فوراً إلى «العربيّة» ليقف بنفسه، من دون وساطة من أحد، على حقائق تتعلّق بالرؤيا التي خبرها؛ وربمّا أيضاً للوقوف على سرٍّ بشأن يسوع وأتباعه الأوائل الذين قدموا أرض فلسطين، كما سبق، عن طريق «عبر الأردن» من مكان لا بدّ أنّه كان من «العربيّة» (أنظر الفصل ١٠). وبولس لا يفصح في أيّة من رسائله عن الفائدة التي جناها من زيارته لِـ «العربيّة.» لكنْ لا بدّ من أنّه حصل هناك على معلومات في غاية الأهميّة شاء أنْ يبقيها لنفسه، أو في الأقلّ أنْ لا يتحدّث عنها في العلن.

يبقى الواقع، وهو أنّ بولس لم يبدأ بتبشيره إلاّ بعد عودته من زيارة «العربيّة.» فلا بدّ، إذن، من أنّه وجد في «العربيّة» ما ساعده على تبشيره بالعقيدة في «المسيح يسوع» التي أطلق عليها هو – وليس أحدٌ قبله – اسم «العهد الجديد» (١ كورنثوس ١١:٢٥؛ ٢ كورنثوس ٣:٦). فما الذي وجده بولس في «العربيّة»؟

٩

مصادر الأناجيل الأربعة

يستفاد من «العهد الجديد» بأنّ أتباع يسوع «النّاصري» عُرفوا في أورشليم بـ «شيعة الناصريّين» أو «النّصارى» (Nazaraioi) أعمال الرُّسل ٢٤:٥) قبل أنْ يتسمّوا «مسيحيّين» (Christianoi) للمرّة الأولى في أنطاكية (أعمال الرُّسل ١١:٢٦). وكان مذهب «النّصارى» يسمّى «الطريق» (hodos كما في أعمال الرُّسل ٩:٢)، أو «طريق الربّ» (hodos tou kuriou كما في أعمال الرُّسل ١٨: ٢٥؛ قابل مع التسمية الإسلامية للمذاهب الصوفيّة بـ «الطرق،» وبالمفرد «طريقة»). ولعلّ هذا كان اسم المذهب الإسرائيلي المناصر لبيت داود أصلاً: مذهب يشترك مع اليهوديّة في قبول الكتاب المقدّس العبري أساساً له، ويختلف عن اليهوديّة في إعطاء مقاطع مختارة من هذا الكتاب تأويلات باطنيّة خاصّة بالنسبة إلى انتظار «مسيح» من بيت داود يعيد المُلك إلى بني إسرائيل. ومن ذلك الإشارة إلى «النّصارى» باليونانيّة على كونهم يشكّلون hairesis أي «مذهب

خاصّ»، أو «شيعة.» (من الفعل hairetizo بمعنى «اختار» أو «انتقى»).

ويبدو أنّ مذهب النّصارى الذي هو «الطريق» كان مركزه أصلاً في «العربيّة» (أي بلاد العرب) قبل أنْ تنتقل به جماعة يسوع إلى فلسطين. وعندما تبيّن لبولس – وهو اليهودي المُتعلّم، والفرّيسي أصلاً – بأنّ يسوع هو المسيح بالفعل، لم يشأ أنْ يتوجّه من دمشق إلى أورشليم ليتلقّى المعلومات عن مذهبه من أتباعه النّصارى الذين بقوا هناك، وهم الذين كانوا «عاميّين» و «عديمي العلم» (أعمال الرُّسل ٤:١٣)، بل توجّه فوراً إلى «العربيّة» ليقف على حقيقة أمر «الطريق» من مصدرها الأصليّ. ويبدو أنّ ما وجده بولس في «العربيّة» وعاد به إلى دمشق هو «الرُّقوق» (membrana) التي يتحدّث عنها في الرّسالة الثانية التي بعث بها من سجنه في روما إلى «الابن الحبيب» تيموثاوس، في أواخر حياته، إذ يقول (٢ تيموثاوس ٤:٩–١٣):

> بادر أنْ تجيء إليّ سريعاً.... لوقا وحده
> معي.... الرّداء الذي تركته في ترواس
> (مقاطعة بغرب الأناضول)... أحضره [معك]
> متى جئت، والكُتب أيضاً، ولاسيّما الرُّقوق.

يتّضح من هذا الكلام أنّ بولس كانت لديه «رُقوق» مهمّة يعتمد عليها كأصول لتبشيره بـ «المسيح يسوع»، ثمّ بـ «يسوع المسيح» مهما كان مصدر هذه الرُّقوق. وهي التي كان لوقا وتيموثاوس، في الأقل، من بين أتباع بولس، على علم بوجودها.

ولعلّ هذه «الرُّقوق» بقيت موجودة بعد وفاة بولس إلى حين، فاستُخدمت كمصادر في كتابة الأناجيل ثُمّ ضاعت، أو أُتلفت.

لكنْ يبقى السؤال: هل من دليل على أنّ الذين كتبوا الأناجيل الأربعة – ولنفترض أنّهم كانوا في الواقع متّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنّا – اعتمدوا على مصادر من نوع أو آخر سابقة لهذه الأناجيل؟

١ – من المُلاحَظ عن الأناجيل الأربعة أنّ ثلاثة منها – أناجيل متّى، ومرقس، ولوقا – تتحدّث عن يسوع بشكل متناسق، على عكس الإنجيل الرابع – إنجيل يوحنّا – الذي يختلف جذرياً عن «الأناجيل المتناسقة» في حديثه عن يسوع.

٢ – من المُلاحَظ أيضاً أنّ المعلومات الأساسية التي يوفرّها إنجيل مرقس عن يسوع واردة أيضاً في إنجيلَي متّى ولوقا، وذلك إلى جانب معلومات أخرى لا يأتي مرقس على ذكرها. وهذا يعني أنّ إنجيل مرقس لم يكنْ إلاّ واحداً من المصادر التي اعتمد عليها متّى ولوقا في كتابة انجيليَهما.

٣ – من المعلومات الإضافية الواردة في انجيلَي متّى ولوقا ما هو مشترك بينهما، ومنها ما هو خاصّ بإنجيل واحد دون الآخر. وهذا يعني أنّ متّى ولوقا استقيا بعض

معلوماتهما من مصدر مشترك، وبعضها الآخر من مصادر مختلفة.

٤ – من المعلومات الواردة في إنجيل لوقا وحده من بين «الأناجيل المتناسقة» ما يرد أيضاً في إنجيل يوحنّا، لكنْ بكلمات أخرى. وهذا يعني أنّ المصدر الخاص بلوقا، والذي أخذ عنه يوحنّا أيضاً، كان مصدراً مكتوباً بلغة غير يونانيّة لا بدّ أنّها كانت الأراميّة، فنقل كلّ منهما مقاطع من هذا المصدر إلى اليونانيّة بأسلوبه الخاص. أو أنّ هذا المصدر كان موجوداً في أصله الأراميّ، وكذلك في ترجمة يونانيّة، فاستخدم واحدٌ منهما (وهو يوحنّا) الأصل، والآخر (وهو لوقا) الترجمة اليونانيّة المتوفرّة له.

٥ – قصّة ولادة يسوع التي يوردها لوقا، ولا يوردها يوحنّا، تأتي من مصدر استخدمه لوقا ولم يستخدمه يوحنّا. أو لعلّها كانت جزءاً من المصدر المشترك بينهما استخدمه لوقا، ولم يستخدمه يوحنّا لسبب أو آخر.

من هذه الملاحظات يتبيّن ما يأتي:

أولاً: أنّ كلاً من متّى ولوقا استخدم إنجيل مرقس مصدراً في كتابة إنجيله.

ثانياً: أنّ متّى ولوقا اشتركا في استخدام مصدر آخر ربمّا كان

مكتوباً باليونانيّة أصلاً، وربمّا كان مصدراً يونانيّاً مترجماً عن أصل أراميّ، فنقلا عنه حرفيّاً بالطريقة ذاتها تقريباً. وقد درج المختصّون على تسمية هذا المصدر Q من الألمانيّة Quelle بمعنى «المصدر.»

ثالثاً: أنّ متّى استخدم مصدراً لم يستخدمه لوقا ولا يوحنّا.

رابعاً: أنّ يوحنّا ولوقا استخدما مصدراً أراميّاً لم يستخدمه متّى. فنقل يوحنّا عن الأصل الأراميّ منه، ولوقا عن ترجمة يونانيّة له لكونه غير متمكّن من الأراميّة، على ما يبدو.

خامساً: أنّ لوقا نقل قصّة ولادة يسوع، كما هي واردة في إنجيله، من مصدر لم يستخدمه متّى، إذ إنّ متّى يورد قصّة ولادة يسوع بشكل آخر. وقد يكون هذا المصدر هو ذاته المصدر الأرامي الذي أخذ عنه كلّ من يوحنّا ولوقا، إلاّ أنّ لوقا شاء أنْ ينقل قصّة ولادة يسوع عن هذا المصدر، في حين أحجم يوحنّا لسبب ما عن ذلك.

نبدأ بالاستنتاج الخامس، فنطرح السؤال: ما هو المصدر الذي أخذ عنه لوقا قصّة ولادة يسوع، والذي ربمّا كان هو ذاته المصدر الأرامي المشترك بينه وبين يوحنّا، من دون مرقس ومتّى؟ قبل محاولة الإجابة على هذا السؤال، علينا أنْ نتفحّص النقاط الأساسيّة الواردة في إنجيل لوقا بشأن ولادة يسوع:

١ – جاء الملاك جبرائيل إلى كاهن طاعن في السنّ اسمه زكريّا ليبشّره بأنّ زوجته العاقر أليصابات، وهي

المتقدّمة في السنّ أيضاً، ستلد له ابناً يسمّيه يوحنّا. وهذا ما حدث. ويوحنّا الذي وُلد لزكريّا في شيخوخته هو يوحنّا المعمدان (لوقا ١:٥–٢٥، ٤٠–٤٥، ٥٦–٨٠).

٢ – جاء الملاك جبرائيل إلى مدينة تسمّى «ناصرة» في الجليل، حيث بشّر عذراءً اسمها مريم بأنّها ستلد ابناً تسمّيه يسوع. وسألت مريم الملاكَ كيف يكون ذلك وهي لم يدخل عليها رجلٌ بعد، فأجابها بأنّ «ليس شيء غير ممكن لدى اللّه» (لوقا ١:٢٦–٣٨).

٣ – عندما حبلت مريم بيسوع، «قامت ... وذهبت بسرعة إلى الجبال، إلى مدينة يهوذا (أو إلى مدينة في يهوذا، باليونانيّة eis polis Iouda)،» حيث التقت بأليصابات التي كانت نسيبة لها (لوقا ١:٣٦، ٣٩).

٤ – كانت مريم آنذاك مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف (١:٢٧)، وعلى ذلك ذهبت من الجليل إلى «يهوذا» (Iouda) – وليس «اليهوديّة» (Ioudaia) – بمفردها.

٥ – صدر أمر من أوغسطس قيصر (ملَكَ ٢٧ ق م – ١٤م) بأنْ يُجرى تعداد عام للسكّان في جميع البلاد الرومانيّة، وأنْ يُسجّل كلُّ فرد في مدينته. فذهب يوسف من الجليل ليتسجّل مع خطيبته مريم في بيت لحم لكونها مدينة داود

في «اليهوديّة» (وليس في «يهوذا»)، وولدت مريم ابنها «البكر» يسوع هناك (لوقا ٢:١-٦). (وفي وصف يسوع بأنّه الابن «البكر» لمريم ما يفيد ضمناً بأنها ولدت أبناءً آخرين من يوسف بعد ولادة يسوع.)

واذا نحن استثنينا ما يرد في هذه القصّة عن جغرافيتها وظروفها التاريخيّة العامّة، وعن كون يوسف خطيباً لمريم، لم يدخل عليها بعد، عندما ولدت يسوع، وعن كون يسوع ابنها «البكر» ممّا يعني أنّه صار لها وليوسف أبناء آخرون بعده، نجد ما تبقى من القصّة مطابقاً، في ما عدا التسميات، لما يرد في سورة مريم من القرآن (١-٢٢) عن مولد عيسى – وليس يسوع – ابن مريم. إذ إنّ الرّواية القرآنية تفيد ما يأتي:

١ – كان زكريّا ينادي ربّه في المحراب عندما بشرّه اللّه بغلام اسمه يحيى، وليس يوحنّا. وزكريّا آنذاك شيخ طاعن في السنّ، وزوجته عاقر.

٢ – كانت مريم قد «انتبذت من أهلها مكاناً شرقيّاً فاتّخذت من دونهم حجاباً» عندما أرسل اللّه ليبشّرها بأنّها ستلد عيسى.

٣ – عندما سألت مريم رسول اللّه، «أنّى يكون لي غلامٌ ولم يمسسني بشرٌ ولم أكُ بغيّاً،» أجابها الرّسول بأنّ ذلك «هيّن» على اللّه.

٤ – عندما حملت مريم بعيسى، «انتبذت به مكاناً قصيّاً» حيث «أجاءَها المخاض.»

ويتبيّن من هذا التناسق بين رواية لوقا لولادة يسوع، ورواية سورة مريم لولادة عيسى، أنّ المصدر الأرامي الذي اعتمده لوقا لرواية قصّته كان يتحدّث عن عيسى ابن مريم قائلاً عنه ما يقوله القرآن.

وفي سورة النساء (الآية ١٧١) من القرآن أنّ «المسيح عيسى ابن مريم» كان «كلمة» اللّه. والإنجيل الوحيد الذي يعتبر يسوع تجسيداً لِلـ «كلمة» (باليونانيّة logos) هو إنجيل يوحنّا (١:١٤) الذي، هو أيضاً، يبتدئ بالحديث عن يوحنّا (بدلاً من يحيى)، ثُمّ ينتقل إلى الحديث عن يسوع (بدلاً من عيسى ابن مريم). وفي سورة الصفّ من القرآن (الآية ٦) أنّ عيسى ابن مريم بشّر بني إسرائيل برسول يأتي من بعده اسمه «أحمد.» والإنجيل الوحيد الذي يتحدّث عمّا يشبه ذلك هو أيضاً إنجيل يوحنّا (١٤:١٦، ٢٦؛ ١٥:٢٦؛ ١٦:٧) في كلامه عن «مُعزّي» (parakletos) وعد يسوع (وليس عيسى) بمجيئه من بعده، فـ «يعلّمكم كلّ شيء ويذكّركم بما قلته لكم» (١٤:٢٦).

ويتّضح من ذلك بأنّ يوحنّا كان مُطّلِعاً على المصدر الأرامي ذاته الذي نقل عنه لوقا قصة ولادة يسوع. وكان يوحنّا، على ما يبدو، واعياً إلى أنّ هذا المصدر لا يتحدّث عن يسوع النّاصري، بكر يوسف النجار، الذي كان له أربعة أُخوة أصغر منه معروفون بالاسم، عدا الأخوات، بل عن عيسى ابن مريم التي لم يكن لها

رجل ولا أبناء غيره. ولذلك لم يأخذ يوحنّا قصّة ولادة عيسى عن هذا المصدر لينسبها إلى يسوع. كما أنّه – أي يوحنا – لم يذكر اسم والدة يسوع ولا مرّة واحدة في إنجيله، بل أشار إلى أنّ والدته كان لها أُخت اسمها مريم، ممّا يفيد بطريقة غير مباشرة بأنّ اسمها هي لم يكن مريم. وهو الواقع الذي كان يوحنّا واثقاً من صحته بسبب علاقته الخاصّة بأُمّ يسوع (أنظر الفصل ٦).

وفي سورة النساء من القرآن (الآية ١٥٧) أنّ الحديث عن قتل اليهود لِـ «المسيح عيسى ابن مريم» (وليس لِـ «يسوع») ما هو إلاّ ظنّ مشكوكٌ ومختلفٌ فيه، إذ إنّهم «ما قتلوه وما صلبوه ولكنْ شُبِّه لهم.» ومن وجوه الشبه بين «يسوع» (بالأراميّة «يشوع») و«عيسى» هو الاسم إذا ما كتب بالأحرف اليونانيّة الخالية من حرفَي الشين والعين، بحيث يصبح من الممكن كتابة الاسمين، مع لاحقه المذكر اليونانيّة للاسماء، بشكل واحد هو Iesous.

ولعلّ المصدر الأرامي الذي يتحدّث عن عيسى ابن مريم (وليس عن يسوع بن يوسف النجّار) كما يتحدّث عنه القرآن ما كان إلاّ إنجيل «شيعة النّصارى» من بني إسرائيل، ومن هذه الشيعة يسوع وأتباعه. والمعروف عن هؤلاء النّصارى أنّهم كانوا يتّبعون شريعة موسى، مثلهم مثل اليهود، لكنْ كان لهم أيضاً إنجيل خاص بهم مكتوب بالأراميّة تشير إليه الكتابات المسيحيّة القديمة. وهو إنجيل لم يُعثر عليه إلى اليوم، ربّما لأن الكنيسة المسيحيّة «الرّسوليّة» أتلفته في وقت ما. ولا بدّ أنّ ورقة ابن نوفل، وهو القسّ النّصراني الذي عاصر بداية الإسلام بمكّة، كان يعتمد هذا الإنجيل الأرامي بالذات. إذ يرد في صحيح البخاري أنّ

ورقـة كـان يكتـب من الإنجيـل بـ «العبرانيّـة،» بمعنى الأراميّـة في مفهوم ذلك العصر. ويبدو ممّا سبق أنّ هذا الإنجيل الأرامي كان يقول عن عيسى ابن مريم ما يقوله القرآن تقريباً، أو ربمّا تماماً. ولذلك صدّق ورقـة ابن نوفـل على صحّـة التنزيـل القرآني، على ما يقوله البخاري وغيره في الحديث عن ورقة. فإذا كان لنا أنْ نعرف ما كان عليه عيسى ابن مريم في غياب ما كان يقوله إنجيل «شيعة النّصارى» عنه، فلا مصدر لنا إلاّ القرآن.

وما يُفيده القرآن جملة هو أنّ «المسيح» عيسى ابن مريم أُرسل نبيّاً إلى بني إسرائيل وأوتي «الكتاب» الذي هو الإنجيل (بالمفرد، لا بالجمع) مصدِّقاً للتوراة التي أوتيت لموسى، ومحلّلاً بعض ما حُرِّم فيها. فقَبِلَ به فريق من بني إسرائيل هو فريق النّصارى، ورفضه آخرون، ومن هؤلاء اليهود الذين أجلّوا «عُزَيْر» (وهو شكل آخر لاسم عزرا، مؤسّس الديانة اليهوديّة) بدلاً منه (التّوبة:٣٠). (وربّما في ذلك إشارة إلى أنّ الفارق الزمني بين دعوة عيسى ودعوة عزرا لم يكن كبيراً.)

ويشير القرآن إلى أنّ مريم التي ولدت عيسى من دون أنْ يكون لها رجل كانت بنت عمران، وأخت هارون، وأنّ مقامها كان بـ «المحراب» حيث كان مقام كفيلها زكريّا. وذلك يعني أنّ مريم كانت تنتمي ليس إلى بيت داود من سبط يهوذا، كما كان الحال بالنسبة إلى يوسف النجّار وابنه يسوع، بل إلى سبط لاوي من بني إسرائيل، وتحديداً إلى السلالة الهارونيّة من هذا السبط الذي كان لها وحدها الكهنوت. علماً بأنّ عمران، حسب التوراة (سفر الخروج)، هو والد موسى وهارون، وأنّ هارون كان أوّل الكهنة

من بني إسرائيل. ويُستفاد أيضاً من القرآن بأنّ عيسى ابن مريم كان يأتي بالآيات، أي أنّه كانت له قدرة على عمل المعجزات. وهو لم يُقتل ولم يُصلَب، كما سبق، بل إنّ اللّه توفّاه ورفعه إليه (آل عمران: ٥٥؛ النساء: ١٥٨). وهو سيُبعث حيّاً (مريم: ٣٣) ليكون شاهداً على أهل الكتاب يوم القيامة (النساء: ١٥٩).

ولا يمكن أنْ يكون عيسى ابن مريم، وهو اللاّوي والهاروني الأصل، هو ذاته يسوع بن يوسف النجّار الذي كان اسم خالته، وليس أُمّه، مريم. وهو الذي كان من بيت داود، ومن سبط يهوذا بشهادة الأناجيل الأربعة، وكذلك بشهادة بولس. بل جُلّ ما في الأمر أنّ الموضوع اختلط على لوقا، وكذلك على مرقس ومتّى (لكنْ ليس على يوحنّا)، فأطلقوا اسم والدة عيسى على والدة يسوع. بل إنّ لوقا ومتّى ذهبا إلى أبعد من ذلك، فأخذا ما كان يقوله إنجيل النّصارى عن ولادة عيسى من عذراء اسمها مريم، ناسبَين ذلك إلى يسوع. وفي الوقت ذاته نسبا يسوع إلى بيت داود عن طريق والده يوسف، واصفين إيّاه بأنّه كان خطيباً لمريم، لم يدخل عليها بعد، عندما ولدت «بكرها» يسوع. ولوقا الذي كان له اطّلاع مباشر على ما ورد في إنجيل النّصارى عن ولادة عيسى (كما لم يكن لا لمتّى، ولا لمرقس) هو وحده الذي أخذ ما وجده في هذا الإنجيل وطبّقه على ولادة يسوع بالتفصيل، بما في ذلك الإشارة إلى كون مريم نسيبة لزكريّا الذي كان كاهناً. وهذا يعني أنّ مريم أيضاً، وكذلك ابنها عيسى، كانا ينتميان إلى السلالة الهارونيّة من سبط لاوي، وليس إلى السلالة الداوديّة من سبط يهوذا.

ولا بدّ من استدراك هنا بشأن تعريف القرآن لعيسى ابن مريم بأنّه «المسيح» على كونه من أصل هاروني، وليس من أصل داودي. فمن المعروف لدى أهل الاختصاص أنّ مِن بني اسرائيل مِن كان ينتظر مجيء مسيح داودي يخلّص شعبه عن طريق إعادة المُلك إليه، ومنهم من كان ينتظر مجيء مسيح هاروني يعيد الكرامة إلى شعبه عن طريق تقويم ديانته. وقد سبق في الفصل الثالث من هذا الكتاب أنّ الكهنوت الصادوقي في إسرائيل لم يكن في الواقع كهنوتاً هارونيّاً شرعيّاً، كما صار أصحابه يدّعون في وقت متأخّر نسبيّاً. بل إنّ الكهنوت الهاروني الشرعي في إسرائيل كان لبيت عالي (أنظر ص ٢٢-٢٣)، وآخر رؤساء الكهنة من هذا البيت كان أبياثار الذي خلعه سليمان ابن داود من منصبه ونفاه، وجعل مساعده صادوق – وهو غير الهاروني الأصل – مكانه. وكان نفيُ الكاهن الهاروني أبياثار إلى مكان اسمه عناثوث (في التهجئة العبريّة «عنتوت»، سفر الملوك الأوّل ٢٦:٢) الذي هو اليوم، في رأيي، القرية المسمّاة عنطوطة، من قرى جيزان، بأقصى جنوب عسير. والمرجّح أنّ السلالة الكهنوتيّة العالويّة (نسبةً إلى جدّها عالي) بقي لها وجود في منفاها بعناثوث. ويبدو أنّ النبيّ إرميا الذي عاصر آخر ملوك يهوذا، وهو المعروف بانتقاداته للكهنوت الصادوقي، والذي شهد السّبي، كان ينتمي إلى هذه السلالة العالويّة ذاتها. إذ إنّه يُعرِّف عن نفسه بأنّه «إرميا بن حلقيا، من الكهنة الذين في عناثوث» (سفر إرميا ١:١). ولا بدّ من أنّ الإسرائيليّين الذين كانوا ينتظرون مجيء مسيح كهنوتي كانوا يأملون بأنْ يكون هذا المسيح عالويّاً

من نسل هارون، وليس من الأسرة الصادوقيّة غير الهارونيّة الأصل التي أخذت الكهنوت الإسرائيلي عن بيت عالي من دون أنْ يكون لها حقّ في ذلك. والقرآن يدلّ على هذا الأمر حيث يشير إلى تقديس النّصارى لعيسى ابن مريم، وهو المسيح الهاروني النسب، خلافاً لليهود الذين قدّسوا «عُزَيْر» (التوبة:٣٠)، وهو الكاهن الصادوقي غير الهاروني الأصل. ولا بدّ من أنّ عيسى وأُمَّه مريم التي كانت تقيم في «المحراب»» وكذلك يحيى وأباه زكريّا الذي كان كفيل مريم في «المحراب» ذاته (على ما يذكره القرآن)، كانوا ينتمون إلى السلالة العالويّة ذاتها.

والظاهر أنّ أنصار الكهنوت العالوي من بني اسرائيل كانوا يشتركون مع أنصار بيت داود في عدائهم لليهود. وفي ذلك ما يفسّر اتبِّاع يسوع وجماعته لمذهب «النّصارى» الذي اعترف بصدق نبوّة عيسى ابن مريم.

وفي القرآن إشارتان إلى فريق من غلاة النّصارى كان يعتبر عيسى إلهاً، ويقول «اللّه هو المسيح ابن مريم» (المائدة: ١٧، ٧٢). فهل كان بين «الرُّقوق» التي عثر عليها بولس ما يمكن أنّه كان كتاباً خاصّاً (أو كتباً خاصّة) بهذا الفريق؟

لا يوجد في الأناجيل الثلاثة «المتناسقة» ما يدلّ على ذلك، إذ إنّ الكلام المنسوب إلى يسوع في جميع هذه الأناجيل لا يشير إلى مصدر غير بشريّ له. غير أنّ هذا الأمر لا ينطبق على ما يسمّيه المختصّون «مقاطع أنا» من إنجيل يوحنّا، ومنها المقاطع الآتية:

١ –«أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم» (٤:٣٢).

٢ – «أنا هو خبز الحياة. من يُقبِل إليّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (٦:٣٥).

٣ – «إنْ عطش أحدٌ فليُقبِل إليّ ويشرب» (٧:٣٧).

٤ – «أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (٨:١٢).

٥ – «أنا... أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل» (١٠:١٠).

٦ – «أنا هو الرّاعي الصالح. والرّاعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف.... أعرف خاصّتي، وخاصّتي تعرفني» (١٠:١١، ١٤).

٧ – «الآب يعرفني، وأنا أعرف الآب» (١٠:١٥).

٨ – «أنا والآب واحد» (١٠:٣٠).

٩ – «أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا. وكل من كان حيّاً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد» (١١:٢٥–٢٦).

١٠ – «أنا الكرمة الحقيقيّة وأبي الكرّام. كلّ غصن فيّ لا يأتي بثمر ينزعه، وكلّ ما يأتي بثمر ينقّيه ليأتي بثمر أكثر. أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلّمتكم به» (١٥:١–٣).

١١ – «أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الذي يثبت فيّ وأنا فيه، هذا يأتي بثمر كثير. لأنّكم بدوني لا تقدرون أنْ تفعلوا شيئا» (١٥:٥).

أضف إلى ذلك الكلام الذي ينسبه يوحنّا إلى يسوع في مخاطبته للمرأة السامرية التي وجدها تستقي ماءً من بئر:

١٢ – «اعطيني لأشرب.... لو كنت تعلمين... من هو الذي يقول لكِ اعطيني لأشرب لطلبت أنتِ منه فأعطاك ماءَ حيّاً.... مَن يشرب

مِن الماء الذي أُعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبديّة» (٤:٧-١٤).

لو كان يسوع المُطالب بعرش داود قال مثل هذا الكلام فعلاً، لخسر رهانه على قيادة إسرائيل منذ البداية، علماً بأنّ مثل هذا الكلام الخالي من أقلّ مسحة من التواضع لا يُقبَل إلاّ من الآلهة. وهل يُعقَل أنْ يكون يسوع الذي كان يخالط أبسط الناس بكامل الوداعة، على ما تقول عنه الأناجيل، هو ذاته ذلك الذي كان يعلن عن كونه «خبز الحياة،» و «نور العالم،» و «القيامة والحياة،» ومصدر «الماء الحي،» والقَيِّم على «الحياة الأبديّة،» والذي بدونه لا يقدر أحدٌ أنْ يفعل شيئاً؟

لعلّ مصدر هذا الكلام كان الكتاب الخاص بذلك الفريق من النّصارى الذي اعتبر أنّ اللّه هو المسيح عيسى ابن مريم، كما هو وارد في القرآن. وفي رسائل بولس اقتباسات غير معروفة المصدر ربّما اقتبسها من هذا الكتاب، أو من كتب أخرى لتلك الجماعة من النّصارى التي كانت تؤَلِّه عيسى ابن مريم، عَثر عليها خلال زيارته لِـ «العربيّة.» ومن هذه الاقتباسات ما يأتي (١ تيموثاوس ٣:١٦؛ ٢ تيموثاوس ٢:١١-١٣):

ظهر في الجسد،
تبرّر في الرّوح،
تراءى لملائكة،
كُرز به بين الأُمم،
أومن به في العالم،

رُفع في المجد.
إنْ كنّا قد متنا معه،
فسنحيا أيضاً معه؛
إنْ كنّا نصبر،
فسنملك أيضاً معه.
إنْ كنّا ننكره،
فهو أيضاً سينكرنا.
إنْ كنّا غير أمناء،
فهو يبقى أميناً:
لن يقدر أنْ ينكر نفسه.

ليس في رسائل بولس ما يشير إلى أنّه أعار اهتماماً خاصّاً لما يمكن اعتباره إنجيل عيسى ابن مريم الخاصّ بالنّصارى، من بين «الرُّقوق» التي حصل عليها خلال الزيارة التي قام بها إلى «العربيّة.» لكنْ لا بدّ من أنّه اطّلع على هذا الإنجيل، ولذلك أحجم عن ذكر والدة يسوع بالاسم على أنّها مريم، تماماً كما فعل يوحنّا من بعده. أما الكتاب الخاصّ بالنّصارى الذين كانوا يؤلِّهون عيسى (ولنفترض بأنّه كان كتاباً واحداً)، فيبدو أنّه كان المصدر الأساسي لتبشير بولس بكون يسوع هو «المسيح» ليس بمعنى المُطالب بعرش داود، بل بمعنى الإله الواحد الأَزلي الذي «ظهر في الجسد.» ويوحنّا، بدوره، استقى من المصدر ذاته تصويره ليسوع بأنّه «الكلمة» الذي «صار جسداً، وحلّ بيننا، ورأينا مجده مجداً كما لوحيدٍ من الآب، مملوءاً نعمةً وحقاً» (يوحنّا ١:١٤). والتبشير هذا عن يسوع لم يكن تبشير أتباعه

الأوائل في أورشليم الذين بقوا على شريعة موسى، يفرضون الختان على كلّ ذَكَرٍ يطلب الالتحاق بهم إذا صدف كونه غير إسرائيلي الأصل، وغير مختون. بل بولس هو الذي بدأ بهذا التبشير، فأخذه عنه الذين وضعوا الأناجيل الأربعة وغيرهم من «الرُّسل» حتى طغى على تبشير «النّصارى» وأصبح التبشير «المسيحيّ» السائد.

والدليل على أنّ بولس وجد ما وجده من رُقوق «شيعة النّصارى،» والجماعة منهم التي كانت تؤلّه عيسى ابن مريم، في مكان من «العربيّة» هو دليل ظرفيّ، لا قطعيّ. ولا يجوز الجزم في الموضوع على أساس هذا الدليل الظرفيّ وحده. فهل ثمّة من دلائل أُخرى تشير إلى هذا الأمر؟

يقول محمّد بن عبد المنعم الحميري في حديثه عن نصارى منطقة نجران بالجزيرة العربيّة، في كتابه «الرّوض المعطار في أخبار الأقطار» (بيروت، ١٩٨٤، ص ٥٧٣)، «وكان أصل ذلك الدين بنجران.» (ويُلاحَظ بالمناسبة كون نجران أقرب مناطق الجزيرة العربيّة إلى منطقة جيزان، حيث قرية عنطوطة التي هي في رأيي عناثوث، مركز الكهنوت الإسرائيلي «العالَوي.») ومن ميزات الديانة المسيحيّة هو القول «بالثالوث.» (الآب، والابن، والرّوح القدس). ومن المستبعد أنْ يكون إنجيل النّصارى (وهو الذي يُقِرّ القرآن بصحّة تنزيله) مصدر هذا القول. بل لعلّ مصدره هو الإنجيل الخاص بالنّصارى الذين اعتبروا عيسى ابن مريم إلهاً.

والقول المسيحيّ بـ «الثالوث» يستند إلى ما ورد على لسان بولس في نهاية رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس (١٣:١٤)

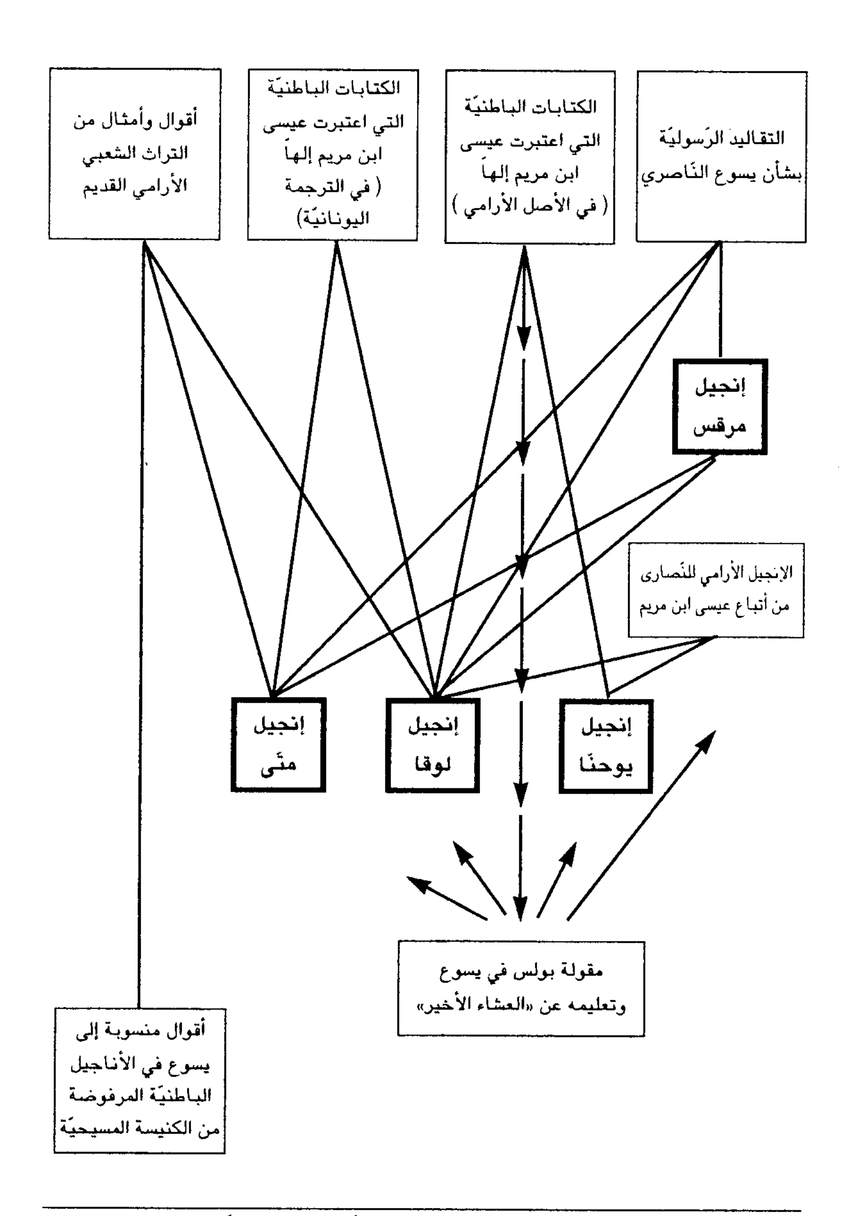
حيث يقول: «نعمة (١) ربّنا يسوع المسيح، ومحبّة (٢) اللّه، وشركة (٣) الرّوح القدس مع جميعكم.» أضف إلى ذلك ما ورد في إنجيل متّى (١٩:٢٨) في جملة آخر ما قاله يسوع لتلاميذه بعد قيامته: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم (١) الآب و(٢) الابن و(٣) الرّوح القدس.» لكنْ في نهاية «الصلاة الربّانيّة» التي علّمها يسوع لتلاميذه، حسب إنجيل متّى (٦: ١٣ب)، ما يمكن أنْ يكون فيه إشارة إلى ثالوث لاهوتي أقدم من ثالوث «الآب والابن والرّوح القدس.» إذ إنّ نهاية هذه الصلاة تقول، في مخاطبتها للّه: «لأنّ لكَ (١) المُلك، و(٢) القوّة، و(٣) المجد، إلى الأبد.» والضالعون في علم «العهد الجديد» يجمعون على أنّ هذا المقطع الأخير من «الصلاة الربّانيّة» لم يكن من الأصل، بل أُضيف إليه لاحقاً، من قلم غير قلم صاحب إنجيل متّى.

ومن غريب الأمر وجود ثلاث قرى متجاورة في منطقة محايل من تهامة عسير، إلى الغرب من منطقة نجران والشمال من منطقة جيزان، تحمل الأسماء الآتية: «المروة آل عيسى،» و«الخيال آل عيسى،» و«مشباح آل عيسى.» علماً بأنّ عبارة «آل عيسى» قد تعني «بيت عيسى،» أو «قوم» عيسى، وقد تكون لفظة «آل» في أسماء هذه الأمكنة الثلاثة هي تعريب للفظة العبريّة والأرامية «إيل،» بمعنى «الإله.» أمّا «المروة» و «الخيال» و «المشباح،» وهي التي تحيّر العقل في الأسماء المركّبة لهذه القرى الثلاث، فلا بدّ من كونها تعريباً لما كان في الأصل الأراميّ «ماروت،» أي «سيادة،» بمعنى «المُلك،» فأصبحت «مروة،» و «حيلا» بمعنى «الحيْل،» أي «القدرة،» أو «القوّة،» فأصبحت «الخيال» (مع قلب

الحاء إلى الخاء التي ليست من أحرف الأبجديّة الأراميّة، بل لغة في حرف الحاء)، و«مشبح» (المصدر من ««شبح،» أي «سبّح،» أو «مجّد») بمعنى «التسبيح،» أو «التمجيد،» التي أصبحت «مشباح.» وهكذا تكون هذه القرى الثلاث من «العربيّة» قد احتفظت بصفات الثالوث المنسوب أصلاً إلى عيسى ابن مريم من ذلك الفريق من النّصارى الذي اعتبره ليس مسيحاً نبيّاً فحسب، بل إلهاً، على ما يقوله القرآن بهذا الشأن. فجاء من نسب هذا «الثالوث» من الصفات (الملكوت والقوّة والمجد) إلى اللّه، ملحقاً إيّاه «بالصلاة الربّانيّة» التي أوردها متّى في إنجيله. ثُمّ أتى ثالوث «الآب والابن والرّوح القدس» الذي جاء به بولس أوّل الأمر، على ما يظهر، فحلّ مكان ثالوث «الملكوت والقوّة والمجد» الذي هو الثالوث الأقدم.

هذا هو تصوّري لبدايات العقيدة المسيحيّة من الناحية التاريخيّة. أقوله وأنا استعيد في ذاكرتي ما ورد في رؤيا يوحنّا اللاّهوتي من كلام في هذا الشأن يذهب إلى أبعد من مجرّد التاريخ (من ١١:١٥ و ١٩:٦، ١٦):

قد صارت ممالك العالم لربنّا ومسيحه....
قد ملك الربّ الإله القادر على كلّ شيء،...
[وهو] سيملك إلى إبد الآبدين....
[ملكاً] للملوك و[ربّاً] للأرباب....



تخطيط لمصادر مواد الأناجيل الأربعة

١٠

ماذا عن الجليل؟

يبقى لنا أنْ ننظر في أمر «الجليل» (باليونانية Galilaia من دون أداة تعريف) الذي كان موطن يسوع في البداية، فخرج منه، هو وأتباعه الأوائل، قاصداً «اليهوديّة» في أرض فلسطين، ومنها المنطقة المعروفة بالجليل في شمال البلاد، حيث مكث مدّة. وقبل وصول يسوع إلى الجليل الفلسطيني كان قد مرّ بأرض «عبر الأردن،» حيث التقى بيوحنّا المعمدان واعتمد على يده. وهذا يعني أنّ موقع الجليل الذي جاء منه يسوع كان أصلاً في مكان ما من «العربيّة،» إلى الشرق من «عبر الأردن.» وقد سبق أنّ اسم «العربيّة» (Arabia) كان يطلق في زمن الإغريق والرّومان على كامل الأرض الممتدّة من المشارف الجنوبيّة لدمشق، التي هي أرض حوران، إلى أقصى الجنوب من الجزيرة العربيّة، الذي هو أرض اليمن. وهذا الامتداد من الأرض هو ذاته «العربيّة» التي توجّه إليها الرّسول بولس فور تجلّي يسوع له.

وفي الأناجيل الأربعة أنّ يسوع كان «ناصريّاً» (Nazaraios)، كما هو موصوف في إنجيل متّى (٢:٢٣)، مثلاً. وأنّه معرّف بكونه «الذي من ناصرة الجليل» tes Galilaias ho apo Nazareth (متّى ٢١:١١؛ قابل مع مرقس ١:٩؛ لوقا ٢:٣٩؛ ٤:١٦؛ يوحنّا ١:١٦). وبلدة الناصرة التي بالجليل الفلسطيني اليوم لا يُعرف لها وجود تاريخي بهذا الاسم هناك قبل القرن الثالث للميلاد. وهذا أمر معروف لدى المختصّين، ولا ضرورة لإعادة إثباته هنا بالدليل.

ننتقل من فلسطين إلى «العربيّة»، فنلاحظ أنّ لا وجود لأمكنة تحمل اسم «الجليل» (بتعريف أو من دون تعريف) إلاّ في الحجاز حيث توجد ثلاثة أودية بهذا الاسم: الأوّل هو وادي جليل في بلاد قبيلة عُتيبة من منطقة الطائف، أسفل وادي لِيّة، وهو وادٍ فيه زراعة وقرى؛ والثاني هو وادي جليل الذي هو من روافد الجزء الأعلى من وادي خُفّ، الذي هو وادي مكّة الأعظم؛ والثالث هو وادي جليل الذي هو من روافد وادي الخانق، على بُعد ٥٠ كيلومتراً تقريباً من مكّة باتّجاه الجنوب. ولعلّ اسم «جليل» كان يُطلق في زمن يسوع على كامل منطقتي الطائف ومكّة، حيث ما زالت الأودية المشار إليها تحمل الاسم ذاته إلى اليوم. أو لعلّ الجليل الذي جاء منه يسوع بالذات كان وادي جليل الذي هو الجزء الأسفل من وادي لِيّة، كما سبق (أنظر الفصل ٤).

وبمحاذاة بلاد عُتيبة من منطقة الطائف، باتّجاه الجنوب، تقع بلاد قبيلة بلحارث، تليها بلاد بني سعد، ثم بلاد بني مالك (وجميعها من منطقة الطائف)، ومن بعدها السّراة من بلاد زهران. وتتكوّن قبيلة بلحارث من ثلاثة أقسام، إحداها القبيلة

المسمّاة «ناصرة.» وموطن «ناصرة» من قبيلة بلحارث هو بوادي مَيْسان، على بعد ١٠٠ كيلومتر تقريباً من الطائف باتّجاه الجنوب. ولا يوجد مكان معيّن اسمه «ناصرة» بجوار وادي مَيْسان، حسب علمي. ولعلّ مكاناً بهذا الاسم كان يوجد هناك من قبل، إذ كثيراً ما تكون أسماء القبائل في الأصل أسماءً لأماكن تنتسب إليها، فتبقى القبيلة محتفظة باسم المكان بعد زواله.

هذا ما يُستفاد عن «جليل» و «ناصرة» من المعاجم المتوفّرة لأسماء الأماكن والقبائل في الحجاز وسائر أنحاء الجزيرة العربيّة. لكنْ هل نمتلك مزيداً من الأدِلّة التي تشير إلى أنّ الجليل الذي جاء منه يسوع هو ذاته جليل الحجاز بجوار مكّة والطائف؟

قد سبق أنّ الأربعة الأوائل من أتباع يسوع كانوا سمعان بطرس وأخاه أندراوس، ويعقوب وأخاه يوحنا المعروفين بابنَي زبدي (Zebadaios)، وربمّا الاسم في اللّفظ الأرامي «زبِيدا.» وفي إنجيل يوحنّا (١:٤٤؛ ١٢:٢١) أنّ سمعان بطرس وأخاه أندراوس – وكذلك تلميذ آخر ليسوع اسمه فيلِبُّس – كانوا في الأصل من «بيت صَيْدا» (Bethsaida), والأصل في اسم هذا المكان «صَيْدا.» واسم «بيت صَيْدا» مقرون في إنجيلي متّى (١١:٢١) ولوقا (١٠:١٣) باسم مكان آخر هو Chorazin، ممّا يُفيد بأنّ المكانين كانا متجاورين. ويتبيّن من الاسم Chorazin كونه صيغة جمع للمفرد Choraz في الأراميّة، يقابلها في العبريّة Chorazim مع قلب لاحقة النون للجمع إلى لاحقة الميم. ويبدو أنّ Choraz هي تهجئة بالحرف اليوناني لاشتقاق من الجذر العبري «قرص،»

بمعنى «خرّب»» يقابله في العربيّة الجذر «قرض.» علماً بأنّ لا وجود للقاف أو الصاد في الأبجديّة اليونانيّة، وأنّ «الصاد» في التهجئة اليونانيّة للأسماء العبريّة أو الأراميّة الأصل كثيراً ما يُستعاض عنها بالزين. وفي «معجم البلدان» لياقوت الحموي أنّ «قُراضِم» (هكذا بالتحريك، كما في Chorazin) كان اسمَ مَوْضِعٍ بالحجاز مقروناً في الشعر القديم بأسماء «المُشلّل»» و«لِفْت»» و«اللِّوى»» التي هي اليوم قرى بجوار بلدة الجموم، على بعد ٢٠ إلى ٢٥ كيلومتراً من مكّة باتّجاه الشمال. وفي جوار الجموم أيضاً قرية اسمها «صَيْدا.» وكون«قُراضم» و«صَيْدا»» كلاهما من جوار الجموم ذاته يعزّز تعريفهما بأنّهما ما كانتا إلاّ Chorazin وBethsaida المذكورتين في الأناجيل.

أمّا بشأن يعقوب ويوحنّا ابنَي زَبَدي (أي «زْبيدا»)، فإنجيل مرقس وحده يشير إلى كون «زَبَدي» هو اسم والد الأخوين (مرقس١: ٢٠). لكنّ إنجيل مرقس يشير، في الوقت ذاته، إلى أنّ الأخوين كانا يسمّيان أيضاً «بوانرجس» (Boanerges)، أي «ابنَي الرَّعد» (بالأراميّة «بْنَي رْجاس»» وبالمفرد «بَرْ رْجاس»)، نسبة إلى والد أو جدّ اسمه «رْجاس»» أي «رعد.» ووالدة يعقوب ويوحنّا مذكورة في الأناجيل على أنّها «أمّ ابْنَي زبدي» (متّى٢٠: ٢٠؛ ٢٧: ٥٦)، وليس «زوجة زبدي»» أو «أرملة زبدي.» وقد يعني ذلك أنّ نسبة الأخوين يعقوب ويوحنّا «ابْنَي رْجاس» على أنهما «ابْنَي زبدي» كانت نسبةً إلى المكان الذي جاءا منه. أو العكس، أي أنّ «ابْنَي رْجاس» كانت نسبةً إلى المكان، وأنّ «ابْنَي زَبدي» (أي «زْبِيدا») كانت النسبة إلى الوالد أو الجدّ. لكنْ ليس ثمّة مكان معروف في منطقتَي مكّة

والطائف اسمه «رْجاس» أو «رعد» (الذي هو الترجمة العربيّة للاسم.) أمّا «زْبيدا،» فهي اليوم قرية «زُبَيدة» من قرى وادي بسِل في بلاد عُتيبة، بمنطقة الطائف من الحجاز، حيث وادي جليل الذي هو الجزء الأسفل من وادي لِيّة. ولعلّ يوحنّا ابن زبدي، وهو «التلميذ الذي كان يسوع يحبّه،» كان مقرّباً إلى يسوع بشكل خاصّ لكون الاثنين منهما «جليليَّين» من الجوار ذاته، وربّما بينهما صلة نسب (أنظر ص ٨٠، ٨١). وقد سبق أنّ يهوذا «القريوي» (وليس «الإسخريوطي») كان ينتسب إلى «القَرْيَة،» من قرى وادي لِيّة الذي منه وادي جليل، من حيث جاء يسوع (انظر الفصل ٧). ولعلّ يسوع ائتمنه من دون غيره على صندوق ماله بسبب صداقة قديمة بين الاثنين مذ كانا في وادي جليل بالحجاز.

وفي الأناجيل ثلاث نسب أُخرى لأربعة من تلاميذ يسوع قابلة للتعريف بأنّها لقُرى ما زالت موجودة في الحجاز حالياً. والنسب الثلاث هذه هي للتلميذين لاوي (مرقس ٢:١٤) ويعقوب (لوقا ٦:١٥) المسمّيين Alphaeus، وللتلميذ سمعان (غير سمعان بطرس) المسمّى Zelotes (لوقا ٦:١٥؛ أعمال الرُّسل ١:١٣)، وهو الذي يسمّى أيضاً Kananites (متّى ١٠:٤؛ مرقس ٣:١٨). ويبدو أنّ هذه النّسب الأربع كانت إلى الأماكن الحجازية الآتية:

١ – النسبة Alphaeus هي إلى مكان اسمه على الأرجح «علف» (من دون تصويت)، علماً بأن الأبجديّة اليونانيّة ليس فيها حرف للعين. و«علاّف» هو اليوم اسم قرية من قرى الجموم إلى الشمال من مكّة، حيث «صيدا» (Bethsaida) و«قُراضِم» (Chorazin).

٢ – يفترض كون Zelotes كلمة يونانيّة تعني «الغَيُور.» لكنّ الأرجح، في رأيي، أنّها نسبة إلى مكان اسمه «زعل» أو بالمؤنث «زعلت» (مع سقوط العين في التهجئة اليونانيّة، ومن دون تصويت). و«زُعْلَة» هو اليوم اسم قرية بأقصى شمال سراة زهران، عند الحدود بينها وبين بلاد بني مالك بمنطقة الطائف.

٣ – النسبة Kananites هي إلى مكان اسمه «كنن» أو «قنن» (من دون تصويت، أو ربمّا «كنعن» أو «قنعن»). و «القنانة» هي اليوم قرية بأقصى جنوب بلاد بني مالك من منطقة الطائف، عند الحدود بينها وبين سراة زهران. ولعلّ سمعان «الزُّعلي» (Zelotes) كان في الأصل من «زُعلة» ببلاد زهران، ثم انتقل منها إلى «القنانة» ببلاد بني مالك من منطقة الطائف، فصارت له، من ثَمَّ، نسبتان، الثانية منهما «القناني» (Kananites).

يبقى لنا أنْ نشير إلى أنَّ أيّاً من الأمكنة التي جاء منها أتباع يسوع الأوائِل، سواء المذكورة بالاسم أو المشار إليها بالنسبة، لا وجود لها بالاسم في جليل فلسطين.

وقد سبق أنّ مرتفعات فلسطين وجوارها، وما يليها إلى الشمال من البلاد، من ناحية هيئة الأرض، ما هي الاّ امتداد للمرتفعات اليمنيّة والحجازيّة المحاذية للبحر الأحمر التي تبتدئ من ساحل المحيط الهندي لتنتهي إلى ساحل البحر

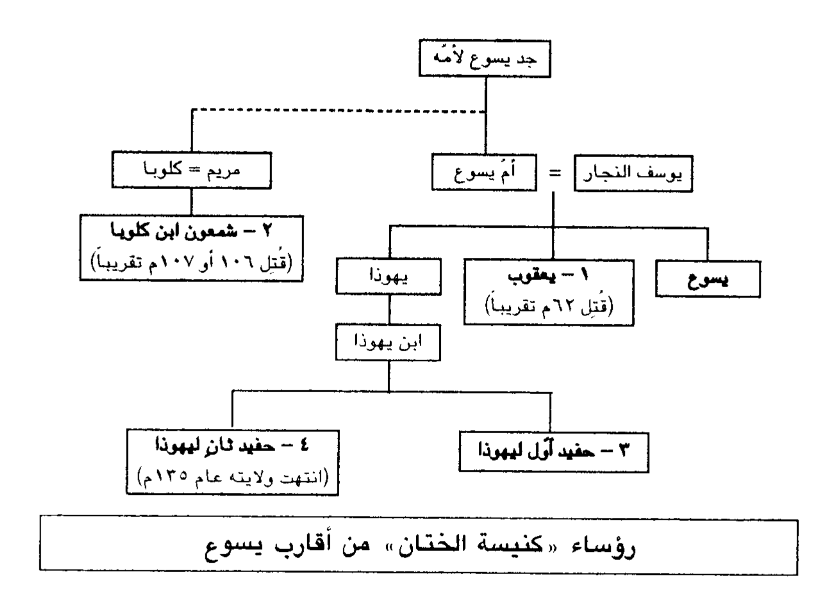
المتوسّط. وقد كانت المسالك البرّية للتجارة بين حوض المحيط الهندي وحوض البحر المتوسّط تمرّ عبر هذه المرتفعات، أو بمحاذاتها، منذ أقدم العصور. وهي المسالك نفسها التي سهّلت ما يسمّى بالعربيّة «التشاؤم»، إشارةً إلى النزوح البشري المشهود، منذ أقدم العصور، من اليمن والحجاز وغيرهما من مناطق الجزيرة العربيّة إلى «الشام»، أي بلاد «الشمال». والأرجح أنّه كان عن طريق هذه المسالك بالذات أنْ انتقلت أعداد كبيرة من الإسرائيليين، من يهود وغير يهود، وأكثر ما يكون ابتداءً بالقرن الرّابع قبل الميلاد، من «يهوذا» التي بغرب الجزيرة العربيّة إلى فلسطين، حيث تأسّست دولة «اليهوديّة» في غضون القرن الثاني قبل الميلاد. ولا بدّ من أنّ هذا النزوح الإسرائيلي بقي مستمراً في القرون التي تلت. فانتقل عن طريق هذا النزوح فريق من سكّان جليل الحجاز ليستقرّ في شمال فلسطين، افتراضاً، فصارت المنطقة حيث استقرّ هذا الفريق تُعرف، هي أيضاً، باسم الجليل. ولعلّ جماعةً من «ناصرة» جليل الحجاز نزحت إلى الجليل الفلسطيني، هي أيضاً، بعد حين، فاستقرّت هناك في البلدة التي صارت تعرف باسم «النّاصرة» نسبة إلى هذه الجماعة.

ولعلّ يسوع النّاصري القادم من جليل الحجاز إلى فلسطين عن طريق «عبر الأردن» ابتدأ دعوته في الجليل الفلسطيني بدلاً من «اليهوديّة» لوجود جالية كبيرة مِن بني قومه هناك، وفي جملتهم أناس من جماعته. بل ولعلّ مِن هؤلاء الجليليّين المحليّين مِن أنصار بيت داود مَن كان على اتّصال بيسوعٍ وهو لا يزال في الحجاز، يزوّده بما يلزمه من المعلومات، أوّلاً، عن

طبيعة الحكم الرّوماني في فلسطين، وعن أوضاع هيرودس أنتيباس في «الرُّبع» الجليلي من «اليهوديّة» الذي كان يترأّسه؛ وثانياً، عن الخلاف الذي كان قائماً بين هيرودس هذا وبين الوالي الرّوماني على «اليهوديّة»؛ وثالثاً، عن كرازة يوحنّا المعمدان في براري «عبر الأردن» بقُرب مجيء المسيح الداودي الموعود، والانتقادات المريرة التي كان يوجّهها هذا المرشد الديني الإسرائيلي إلى هيرودس وأفراد أسرته، وهم غير الإسرائيليّي الأصل، معبّراً في انتقاداته هذه عن القَدْر الذي كانت عليه النقمة الإسرائيليّة على الحكم الهيرودي.

ويبدو أنّ الحجاز ذاته الذي جاء منه يسوع وأتباعه كان قد شهد سابقاً دعوة المسيح الهاروني عيسى ابن مريم إلى تقويم الديانة الإسرائيليّة. بل وأنّ دعوة عيسى ابن مريم كان مركزها في الجليل الحجازي، بل وفي «ناصرة» هذا الجليل، ولذلك سُمّي أتباعه «ناصريّين،» أو «نصارى.» وفي «كتاب التيجان لملوك حمير» (حيدر آباد الدّكن، ١٣٤٧هـ، ص ١٨٠) الذي وضعه وهب ابن منبّه، اليمني واليهودي الأصل، في أواخر القرن الأوّل أو بداية القرن الثاني للهجرة، يرد أنّ عيسى ابن مريم كانت له علاقة مع أعيان مكّة، ممّا يعزّز القول بأنّ الحجاز كان مركزاً لدعوته.

يبقى أنّ «النّصارى» من أتباع يسوع «النّاصري» وتلاميذه الذين بقوا في أورشليم استمرّوا على مذهبهم بقيادة أربعة أقرباء ليسوع تعاقبوا، من بعد يعقوب ابن زبدي، على رئاسة «كنيسة الختان» (كما درجت تسمية جماعة النّصارى بأورشليم). هذا ما يقوله يوسابيوس القيسري، استناداً إلى هغسِبّوس.



رؤساء «كنيسة الختان» من أقارب يسوع

ثُمّ طُرد اليهود من أورشليم - ومعهم جميع النّصارى الذين في المدينة - في العام ١٣٥م، وذلك في زمن الإمبراطور الرّوماني هادريانُس (حَكَمَ ١١٧-١٣٨م). وعندما أُعيد تأسيس كنيسة أورشليم فيما بعد، جرى ذلك على أساس المسيحيّة «الرّسوليّة» القائمة على تبشير بولس، وليس على أساس مذهب النّصارى. هذا ما يُستفاد أيضاً من كتاب «تاريخ الكنيسة» الذي وضعه يوسابيوس القيسري في الرّبع الأوّل من القرن الميلادي الرّابع.

وبنهاية أمر النّصارى بأورشليم، انتهى أمر بيت داود. وكان آخر من بقي منه حفيدان ليهوذا أخي يسوع، وهما آخر من تعاقب على رئاسة «كنيسة الختان.» وهذا ما يقوله يوسابيوس القيسري بشأن هذين الأخوين (٣:١٩-٢٠)، نقلاً عن هغسِبّوس:

> أصدر [الإمبراطور دوميتيانس، حَكَمَ ٨١-٩٦م] أمراً بإعدام جميع الذين كانوا من نسل داود.... وكان قد بقي من أُسرة يسوع حفيدان [لأخيه] يهوذا.... فجاءت الوشاية بهما على كونهما من نسل داود، واقتيدا... أمام دوميتيانس.... فسألهما... عمّا إذا كانا من نسل داود، فأقرّا بذلك. ثُمّ سألهما عن ممتلكاتهما، وعن الأموال التي كانت لديهما، فأجابا بأنّهما يملكان معاً تسعة آلاف دينار فقط، لكلّ واحد منهما النصف؛ وأنّ هذا [المبلغ] لم يكن بحوزتهما نقداً، بل هو القيمة التقديريّة لخمسة وعشرين فِدّاناً من الأرض يدفعان من نتاجها الضرائب، ويعتاشان منها بعملهما. وعندئذٍ أرَياه أيديهما... وما عليها من الجُسأ الناتجة عن العمل المستمرّ [في الأرض].... وعندما سُئِلا عن المسيح وملكوته...، أجابا بأنّه لم يكن من هذا العالم.... وعندما سمع دوميتيانُس [شهادتهما]، لم يجد فيهما علّة. واعتبر أنّهما لا يليقان باهتمامه، فأطلق سراحهما....

غير أنّ مذهب النّصارى لم ينتهِ بنهاية «كنيسة الختان» في أورشليم، بل استمرّ في الوجود لعدّة قرون بعد ذلك، خاصّةً في بلاد العرب، بل وربّما تحديداً بالحجاز، معتمداً الإنجيل الأرامي الخاصّ به. وآخر من هو معروف بالاسم من نصارى الحجاز هو ورقة ابن نوفل الذي «كان يكتب من الإنجيل بالعبرانيّة» بمكّة

عند بداية الإسلام هنـاك، مصدِّقـاً لصحّة ما عُرض عليه من تنزيل القرآن، كما يرد في صحيح البخـاري (أنظر الفصل السابق). وفي ذلك ما يشير إلى أنّ أمر نصارى الحجاز ربّما انتهى بـاعتنـاقهم للإسلام، إذ يبدو أنّهم لم يجدوا في القرآن ما يخالف عقيدتهم إلى حدّ يحول دون قبولهم به بديلاً عن إنجيلهم.

١١

قراءتان في إنجيل يوحنّا

تحتوي الأناجيل الأربعة من «العهد الجديد» على مواد متنوّعة الأُصول، كما سبق، منها ما يستند إلى روايات حيّة عن يسوع، ومنها ما هو مأخوذ من إنجيل النّصارى الذي كان يتحدّث ليس عن يسوع، بل عن عيسى ابن مريم. أضف إلى ذلك التعاليم والأقوال المنسوبة إلى يسوع. وبعضها مستمدٌّ إمّا من إنجيل النصّارى ذاته، أو من تراث شعبيّ من الحِكَمِ والأمثال ومأثور الكلام، كان شائعاً في بلاد المشرق في الزّمن الذي كُتبت فيه الأناجيل الأربعة. أضف إلى ذلك أيضاً الأقوال المنسوبة إلى يسوع ذات الطابع اللاهوتي، وهي المأخوذة أكثر ما يكون عن مقولة الرّسول بولس عن يسوع، أو المستوحاة من هذه المقولة.

وبالنسبة إلى إنجيل يوحنّا، فمن الواضح أنّ «مقاطع أنا» الواردة فيه – وهي التي تنسب إلى يسوع كلاماً لا يليق إلاّ بالآلهة – مأخوذة من مصدر خاص بذلك الفريق من النّصارى الذي كان

يجلّ عيسى ابن مريم عن كونه نبيّاً فحسب، فيعتبره إلهاً، على ما يُستفاد من القرآن (أنظر الفصل السابق).

والتعمّق في دراسة مضمون «العهد الجديد» وتحليله يتطلّبان معرفة دقيقة بكلّ ما يتعلّق باللغة اليونانيّة من ناحية الصرف والنحو والأسلوب، وكذلك من ناحية ما طرأ على هذه اللغة من تحوّلات بين الحين والآخر من تاريخها. وأنا لست من الضالعين في شأن اليونانيّة إلى الحدّ المطلوب لمثل هذا العمل. غير أنّ تحليل نصوص الأناجيل من «العهد الجديد» يبقي ممكناً بطريقة أخرى، وهي قراءة النصّ المعيّن بدقّة كافية لفرز المواد المختلفة منه، بحيث يصبح بالإمكان معالجة كلٍّ من هذه المواد على حدة واستخلاص ما يمكن استخلاصه منها. ومثالاً على ذلك، فسوف نأخذ مقطعين مركّبين من إنجيل يوحنّا ونقرأهما على هذا الأساس، مُثبتين ما يتعلّق بيسوع النّاصري بالحرف العادي، وما يتعلّق بعيسى ابن مريم على أنّه إله، إضافةً إلى كونه نبيّاً، بالحرف الأسود، وواضعين ما هو منسوب إلى يسوع من أقوال لاهوتيّة مستوحاة من بولس أو من غيره من الرُّسل بين أقواس عاديّة، وواضعين الجمل المشتركة بين المادة والأخرى بين أقواس معقوفة. أما الإضافات التحريريّة، فسوف نبرزها بالحرف المائل. وسوف نبقي اسم Iesous بتهجئته اليونانيّة، ثم نبرزه على شكل «يسوع» أو «عيسى،» حسب الضرورة، في إعادة صياغة المقاطع لاحقاً.

المقطع الأوّل الذي سنقوم بتحليله على هذا الأساس هو ذلك الذي يتحدّث عن اللقاء بين Iesous والمرأة السامريّة عند بئر يعقوب (يوحنّا ٤:٣-٣٩):

ترك اليهوديّة ومضى أيضاً إلى الجليل. وكان لابدّ له أنْ يجتاز السامرة. فأتى إلى مدينة من السامرة يقال لها سوخار بقرب الضيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه. وكانت هناك بئر يعقوب. فاذ كان Iesous قد تعب من السفر [جلس هكذا على البئر.] وكان نحو الساعة السادسة. [فجاءت امرأة] من السامرة [لتستقي ماءً.] [فقال لها Iesous: «أعطيني لأشرب.»] لأنّ تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاماً. فقالت له المرأة السامريّة: «كيف تطلب منّي لتشرب وأنت يهوديّ، وأنا امرأة سامريّة؟ لأنّ اليهود لا يعاملون السامريّين.» أجاب Iesous وقال لها: **«لو كنتِ تعلمين عطيّة اللّه؛ ومَنْ هو الذي يقول لكِ «أعطيني لأشرب،» لطلبتِ أنتِ منه، فاعطاكِ ماءً حيّاً.» قالت له المرأة: «ياسيّد، لا دلو لك، والبئر عميقة. فمن أين لك الماء الحيّ؟** ألعلّك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر وشرب منها هو، وبنوه، ومواشيه؟» **أجاب Iesous وقال لها: «كلّ من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً. ولكنْ من يشرب من الماء الذي أُعطيه أنا فلن يعطش**

إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبديّة.» قالت له المرأة: «ياسيّد، أعطني هذا الماء لكي لا أعطش ولا آتي إلى هنا لأستقي.» قال لها Iesous: «اذهبي وادعي زوجكِ وتعالي إلى ههنا.»أجابت المرأة وقالت: «ليس لي زوج.» قال لها Iesous: «حسناً قلتِ «ليس لي زوج،» لأنّه كان لكِ خمسة أزواج، والذي لكِ الآن ليس هو زوجكِ. هذا قُلتِ بالصّدق.» قالت له المرأة: «يا سيّد، أرى أنّك نبيّ. آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون أنّ في أورشليم الموضع الذي ينبغي أنْ يُسجد فيه.» قال لها Iesous: «يا امرأة، صدّقيني أنّه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون (للآب. أنتم تسجدون لما لستم تعلمون. أمّا نحن فنسجد لما نعلم. لأنّ الخلاص هو من اليهود. ولكن تأتي ساعةٌ، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيّون يسجدون للآب بالرّوح والحق، لأنّ الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له. اللّه روحٌ، والذين يسجدون له فبالروح والحقّ ينبغي أنْ يسجدوا.») قالت له المرأة: أنا أعلم أنّ مَسِيّاً *الذي يقال له*

المسيح يأتي. فمتى جاء ذاك يُخْبِرُنا بكلّ شيء.» قال لها Iesous: «أنا الذي أُكلّمك هو.» وعند ذلك جاء تلاميذه، وكانوا يتعجبّون أنّه يتكلّم مع امرأةٍ. ولكنْ لَم يُقلْ أحدٌ ماذا تطلب أو لماذا تتكلم معها. [فتركت المرأة جرّتها ومضت إلى المدينة وقالت للناس: «هلّموا، انظروا] **إنساناً قال لي كلّ ما فعلت**. ألعلّ هذا هو المسيح.» فخرجوا من المدينة وأتوا إليه. (وفي أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين: «يا مُعلّم، كُلْ. فقال لهم: «أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم.» فقال التلاميذ بعضهم لبعض: «ألعلّ أحداً أتاه بشيء ليأكل.» قال لهم Iesous: «طعامي أنْ أعمل مشيئة الذي أرسلني وأُتمّم عمله. أما تقولون أنّه يكون أربعة أشهر ثُمّ يأتي الحصاد؟ ها أنا أقول لكم: ارفعوا عيونكم وانظروا الحقول، إنّها قد ابيضّت للحصاد. والحاصد يأخذ أجرةً، ويجمع ثمراً للحياة الأبديّة، لكي يفرح الزارع والحاصد معاً. لأنّه في هذا يصدق القول إنّ واحداً يزرع وآخر يحصد. أنا أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه. آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم

على تعبهم.») فآمن به من تلك المدينة كثيرون....

من الواضح أنّ هذا المقطع من إنجيل يوحنّا يتألف من قصّتين، واحدة عن لقاء بين يسوع وامرأة سامرية عند بئر يعقوب بمكان اسمه سوخار، من أعمال السامرة، والثانية عن إله تراءى لامرأة عند بئر. فجاء من مزج بين القصّتين، مضيفاً إلى النصّ المركّب أقوالاً لاهوتيّة على لسان يسوع لن نتطرّق إليها. والقصّة الأولى التي هي عن يسوع – وهو «المسيح» المُطالِب بالمُلك على إسرائيل، وفي فلسطين – هي الآتية:

ترك اليهوديّة ومضى إلى الجليل. وكان لا بدّ له أنْ يجتاز السامرة. فأتى إلى مدينة من السامرة يقال لها سوخار بقرب الضيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه. وكانت هناك بئر يعقوب. فاذ كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر. وكان نحو الساعة السّادسة (أي نحو الظهر). فجاءت امرأة من السامرة لتستقي ماءً. فقال لها يسوع: «أعطيني لأشرب.» لأنّ تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاماً. فقالت له المرأة السامريّة: «كيف تطلب منّي لتشرب وأنت يهوديّ، وأنا امرأة سامريّة؟ لأنّ اليهود لا يعاملون السامريّين. ألعلّك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر وشرب منها هو،

وبنوه، ومواشيه؟ آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون أنّ في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجد فيه.» قال لها يسوع: «يا امرأة، صدّقيني أنّه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون.» قالت له المرأة: « أنا أعلم أنّ مَسِيّاً (التهجئة اليونانية للفظة الأراميّة «مْشِيحا،» أي المسيح) يأتي. فمتى جاء ذلك يُخْبِرُنا بكلّ شيء.» قال لها يسوع: «أنا الذي أُكلّمك هو [ذلك المسيح].» وعند ذلك جاء تلاميذه، وكانوا يتعجّبون أنّه يتكلّم مع امرأة، ولكنْ لم يقل أحدٌ «ماذا تطلب،» أو «لماذا تتكلم معها.» فتركت المرأة جرّتها ومضت إلى المدينة وقالت للنّاس: «هلمّوا، انظروا، ألعلّ هذا هو المسيح.» فخرجوا من المدينة وأتوا إليه.

أمّا القصّة الثانية، وهي عن النبيّ عيسى ابن مريم باعتباره إلهاً، فهي الآتية:

جلس هكذا على البئر، فجاءت امرأة لتستقي ماءً. فقال لها عيسى: «أعطيني لأشرب. لو كنت تعلمين عطيّة الله، ومن هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب، لطلبتِ أنتِ منه، فأعطاكِ ماءً حيّاً.» قالت له المرأة: «يا سيّد، لا دلوَ لك، والبئر عميقة. فمن أين لك الماء الحيّ؟ أجاب عيسى وقال لها: «كلّ من يشرب من

> هذا الماء يعطش أيضاً. ولكنْ من يشرب من الماء الذي أُعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبديّة.» قالت له المرأة: «يا سيّد، أعطني هذا الماء لكي لا أعطش ولا آتي إلى هنا لأستقي.» قال لها عيسى: «اذهبي وادعي زوجكِ وتعالي إلى ههنا.» أجابت المرأة وقالت: «ليس لي زوج.» قال لها عيسى: «حسناً قلتِ «ليس لي زوج،» لأنّه كان لكِ خمسة أزواج، والذي لكِ الآن ليس هو زوجكِ. هذا قلتِ بالصِّدق.» قالت له المرأة: «ياسيّد، أرى أنّك نبيّ.» فتركت المرأة جرّتها ومضت إلى المدينة وقالت للنّاس: «هلمّوا، انظروا إنساناً قال لي كلّ ما فعلت.» فآمن به من تلك المدينة كثيرون....

ولا يخفى أنّ «الماء الحيّ» الذي هو محور الكلام المنسوب إلى عيسى في هذه القصّة – وهو «الماء» الذي يضمن لشاربه «الحياة الأبديّة» – ليس إلاّ ماء الفحولة (بالعربيّة «العَيْس») الذي يجعل الذكور يُخصبون الإناث، فيضمن بذلك «الحياة الأبديّة» عن طريق النسل. ومن ذلك يتبيّن أنّ الذين كانوا يُؤلِّهون عيسى (ولعلّه هو ذاته الإله «عس» الذي يرد ذكره في النقوش الثموديّة بشمال الحجاز) كانوا يعتبرونه إلهاً للخصوبة يختصّ بإخصاب الإناث عن طريق إفحال الذكور. إذ عندما طلبت المرأة «الماء الحيّ» من عيسى، على ما تقوله القصّة التي نحن بصددها،

أجابها فوراً: «اذهبي وادعي زوجكِ وتعالي إلى ههنا.»

من هنا نأتي إلى المقطع الثاني من إنجيل يوحنّا حيث يختلط أمر يسوع المُطالِب بعرش داود مع عيسى، كذلك ليس كنبيّ، بل كإله للخصوبة. ويوجد إقرار عام بين علماء العهد الجديد بكون هذا المقطع مركّباً من أكثر من عنصر. والتركيب فيه أوضح في الأصل اليوناني حيث يتغيّر الأسلوب في الرواية بين الجملة والجملة أحياناً. وهذا هو نصّ المقطع في الترجمة العربيّة (يوحنّا ١٠: ٢٢–٤٠؛ ١١: ١ –٤٤):

> كان عيد التجديد في أورشليم، وكان شتاءً. وكان Iesous يتمشّى في الهيكل في رواق سليمان.... فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه.... فطلبوا أيضاً أنْ يمسكوه، فخرج من أيديهم، ومضى أيضاً إلى عبر الأردن، إلى المكان الذي كان يوحنّا يعمّد فيه أوّلاً، ومكث هناك. وكان إنسان مريضاً، وهو لَعازر من بيت عنيا (Bethania في التهجئة اليونانيّة: قابل مع الآراميّة «بيت عنوايا،» بمعنى «بيت النُسّاك،» أي «الدّير») من قرية مريم ومرثا *أختها*. وكانت مريم *التي كان لَعازر أخوها* مريضاً هي *التي دهنت الربّ* بطيب ومسحت رجليه بشعرها (قابل مع يوحنّا ١٢:٣). فأرسلت الأُخْتان (باليونانيّة adelphai أي «الأخوات،» بصيغة الجمع، لا المثنّى، من adelphe) إليه قائلتين (باليونانيّة legousai أي «قائلات،» كذلك بصيغة الجمع): «يا سيّد،

هوّذا الذي تحبّه مريض. (فلمّا سمع Iesous قال: «هذا المرض ليس للموت، بل لأجل مجد اللّه، ليتمجّد ابن اللّه به.») **وكان** Iesous **يحبّ** مرثا *وأختها* ولِعازر. **فلمّا** سمع **أنّه مريض** مكث حينئذٍ في الموضع الذي كان فيه يومَين. ثم بعد ذلك قال لتلاميذه: «لنذهب إلى اليهوديّة أيضاً.» قال له التلاميذ: «يا معلّم، الآن كان اليهود يطلبون أنْ يرجموك، وتذهب أيضاً إلى هناك؟» (أجاب Iesous «أليست ساعات النهار اثنتي عشرة؟ إنْ كان أحدٌ يمشي في النهار لا يعثر لأنّه ينظر نور هذا العالم. ولكنْ إنْ كان أحدٌ يمشي في اللّيل يعثر، لأنّ النور ليس فيه.») **قال هذا،** *وبعد ذلك قال لهم:* «**لِعازر حبيبنا قد نام، لكنّي أذهب لأوقظه.**» **فقال** *تلاميذه:* «***يا*** *سيّد إنْ كان قد نام، فهو يشفى.*» *وكان* Iesous *يقول عن موته. وهم ظنوا أنّه يقول عن رقاد النوم. فقال لهم* Iesous **حينئذٍ علانيّة:** «**لِعازر مات،** (وأنا أفرح لأجلكم إنّي لم أكن هناك لتؤمنوا.) **ولكن لنذهب إليه.**» فقال توما *الذي يقال له «التَّوأَم»* للتلاميذ رفقائه: «لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه.» **فلمّا أتى** Iesous **وجد أنّه قد صار له أربعة أيام في القبر.** وكانت بيت عنيا قريبة من *أورشليم نحو خمس عشرة غلوة. وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا إلى مرثا ومريم ليعزّوهما عن أخيهما. فلما سمعت مرثا أنّ*

Iesous *آت، لاقته. وأمّا مريم فاستمرّت جالسة في البيت.* **فقالت مرثا** (Martha، قابل مع الأراميّة «مارتا» بمعنى «السيّدة، الحاكمة، الأميرة، ربّة البيت، رئيسة الدّير») لِـ Iesous: «**ياسيّد، لو كنت ههنا لم يمت** *أخي. لكنّي الآن أيضاً أعلم أنّ كلّ ما تطلب من اللّه يعطيك اللّه إيّاه.»* **قال لها** Iesous: «**سيقوم** *أخوك.» قالت له مرثا: «أنا أعلم أنّه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير.» قال لها* Iesous: «**أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا، وكلّ من كان حيّاً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد. أتؤمنين بهذا؟ قالت له:** «**نعم يا سيّد، قد آمنت** *أنّك أنت المسيح* (ابن اللّه الآتي إلى العالم»). *ولمّا قالت هذا مضت* ودعت مريم *أختها سرّاً قائلة: «المعلّم قد حضر، وهو يدعوك. أمّا تلك، فلمّا سمعت قامت سريعاً وجاءت إليه. ولم يكن* Iesous قد *جاء إلى القرية، بل كان في المكان الذي لاقته* فيه مرثا. *ثمّ أنّ اليهود الذين كانوا* معها في *البيت* يعزّونها، *لمّا رأوا* مريم قامت عاجلاً *وخرجت، تبعوها قائلين إنّها تذهب إلى القبر لتبكي هناك. فمريم لمّا أتت إلى حيث كان* Iesous، *ورأته، خرّت عند رجليه قائلة: «يا سيّد، لو كنت ههنا لم يمت أخي.» فلمّا رآها* Iesous *تبكي، واليهود الذين جاءوا معها يبكون، انزعج بالرّوح واضطرب. وقال: «أين*

> وضعتموه؟» قالوا له: « يا سيّد، تعال وانظر.»
> بكى Iesous، فقال اليهود: «انظروا كيف كان
> يحبّه.» وقال بعض منهم: «ألم يقدر هذا الذي
> فتح عينَي الأعمى (قابل مع يوحنّا ٩:١–٣٨)
> أنْ يجعل هذا أيضاً لا يموت؟» فانزعج Iesous
> أيضاً في نفسه. وجاء إلى القبر، وكان مغارة
> وقد وُضع عليه حجر. قال Iesous: «ارفعوا
> الحجر.» قالت له مرثا أخت الميت: «يا سيّد، قد
> أنتن، لأن له أربعة أيّام.» قال لها Iesous: «ألم
> أقل لكِ، إن آمنتِ تَرَيْنَ مجد اللّه؟» فرفعوا
> الحجر...، (ورفع Iesous عينيه إلى فوق وقال:
> «أيها الآب، أشكرك لأنّك سمعت لي، وأنا علمت
> أنّك في كل حين تسمع لي. ولكن لأجل هذا الجمع
> الواقف قلت، ليؤمنوا أنّك أرسلتني.») ولمّا قال
> هذا صرخ بصوت عظيم: لَعازر، هلُمَّ خارجاً!»
> فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة،
> ووجهه ملفوف بمنديل. فقال لهم Iesous:
> «حلِوه، ودعوه يذهب.»

نأخذ من هذا المقطع، أولاً، الجزء المتعلّق بيسوع. وهو الذي يتحدّث عن فراره من أورشليم، ثمّ عن قراره بأنْ يجازف فيعود إليها ثانيةً. ويلاحظ أنّ التتابع الروائي في هذا الجزء من المقطع ليس فيه أيّ خلل في المنطق:

> كان عيد التجديد في أورشليم، وكان شتاءً.
> وكان يسوع يتمشّى في الهيكل في رواق

سليمان.... فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه.... فطلبوا أيضاً أنْ يمسكوه، فخرج من أيديهم، ومضى أيضاً إلى عبر الأردن، إلى المكان الذي كان يوحنّا يعمّد فيه أوّلاً، ومكث هناك. مكث في الموضع الذي كان فيه [يوحنّا] يومَين، ثمّ بعد ذلك قال لتلاميذه: «لنذهب إلى اليهوديّة أيضاً.» قال له التلاميذ: «يا معلّم، الآن كان اليهود يطلبون أنْ يرجموك، وتذهب أيضاً إلى هناك؟» فقال توما للتلاميذ رفقائه: «لنذهب نحن أيضاً لكي نموت معه.»

بعد استخراج هذه القصّة من نصّ المقطع، ننتقل إلى الجزء الذي يتحدّث عن عيسى بصفته الإله الذي يقول عن نفسه «أنا هو،» فيروي قصّة موت المدعو لَعازر في «بيت عنيا،» ثمّ عودته إلى الحياة بعد أربعة أيّام من موته عندما دعاه عيسى للخروج من القبر الذي وُضع فيه. وقد لاحظنا أنّ «بيت عنيا» (بالتهجئة اليونانيّة Bethania) ربمّا كانت في الأصل الأرامي «بيت عنوايا» بمعنى «بيت النُسّاك،» أيّ الدّير، والقيّمة على هذا «البيت» Martha (بالأراميّة «مارتا»)، بمعنى «الرئيسة.» غير أنّ يوحنّا اعتبر أنّ «مارتا» هو اسم علم، وليس كلمة عاديّة بمعنى «الرئيسة،» أو «ربّة البيت،» فخلط بين قصّة لَعازر، وبين قصّة يرويها لوقا (١٠: ٣٨–٤٢) عن زيارة قام بها يسوع، وهو بعد في الجليل، إلى امرأتين هما الأُختان مرثا ومريم، لم يكن لهما أيّة علاقة بـ «بيت عنيا.» فجعل من مرثا ومريم أُختين للَعازَر تتقبّلان

التعازي على وفاته. وإذا نحن أخذنا ما يرويه لوقا عن زيارة يسوع لمرثا ومريم في قريةٍ ما من الجليل (بالحرف العادي)، وأضفنا إليها ما يقوله يوحنّا عن هذه الزّيارة داخل منظومة قصّة لَعازر (بالحرف الأسود)، نجد أنّ الكلام يأتي مكمّلاً لبعضه، ممّا يعني أنّ لوقا ويوحنّا نقلا ما يقولانه بشأن هذه الزّيارة عن مصدر واحد:

> وفيما هم سائرون [في الجليل] دخل قرية، فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها. وكانت لهذه أُخت اسمها مريم. **فلمّا سمعت مرثا أنّ يسوع آتٍ، لاقته. وأمّا مريم فاستمرّت جالسة في البيت. فقالت مرثا ليسوع: «نعم، يا سيّد، قد آمنت أنّك أنت المسيح.» ولمّا قالت هذا مضت ودعت أُختها سرّاً قائلة: «المعلّم قد حضر، وهو يدعوكِ. أمّا تلك، فلمّا سمعت قامت سريعاً وجاءت إليه.** جلست عند قدمَي يسوع، وكانت تسمع كلامه. وأمّا مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة. فوقفت وقالت يا ربّ (أيّ «يا معلّم» أو «ياسيّد»)، أما تُبالي بأنّ أُختي قد تركتني أخدم وحدي؟» فقُل لها أنْ تُعينني.» فأجاب يسوع وقال لها: «مرثا، مرثا، تهتمّين وتضطربين لأجل أمورٍ كثيرة، ولكنّ الحاجة إلى واحد. فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن ينزع منها.»

وفي إنجيل يوحنّا (١٢:٢-٣) حديث عن «عشاء» صنع على

شرف Iesous (وهو هنا عيسى) في «بيت عنيا» لمناسبة عودة لَعازر إلى الحياة. « وكانت مرثا (هنا «مارتا،» بمعنى «الرئيسة») تخدم، وأمّا لَعازر فكان أحد المتّكئين [مع عيسى].» وهنا أيضاً اختلط الأمر على يوحنّا، فاعتبر أنّ «مارتا» التي كانت تخدم ما هي إلاّ مرثا أخت مريم. فأدخل مريم في القصّة على الوجه الآتي: «فأخذت مريم مَناً [أيّ مئة درهم] من طيب ناردين خالص، كثير الثمن، ودهنت قدمي يسوع، ومسحت قدمَيه بشعرها، فامتلأ البيت من رائحة الطيب» (قابل هذه القصّة مع تلك التي يرويها مرقس، ١٤:٣، عن هذا الحدث حيث لا ذكر لا لمرثا، ولا لأُختها مريم بالاسم).

والملاحظ بشأن لَعازر كونه شخصيّة صامتة، لا يُنسب إليها أيّ كلام. ناداه Iesous الذي هو عيسى، وهو في القبر، قائلاً له: «لَعازر، هلمَّ خارجاً!» فخرج من دون أنْ يتلفّظ بكلمة واحدة. بل جُلّ ما حدث، حسب الرّواية، أنّ عيسى قال للذين شاهدوا خروجه من القبر، وهو لا يزال ملفوفاً في أكفانه: «حلّوه، ودعوه يذهب.» وفي العشاء الذي أقيم في «بيت عنيا» على شرف عيسى بعد إقامته للَعازَر من الموت، كان لَعازر «أحد المتّكئين،» كذلك من دون أنْ يتلفّظ بكلمة. ونظراً إلى ذلك، فلعلّ لَعازر لم يكن مخلوقاً بشريّاً، بل صنماً للإله الذي كانت «الرئيسة» («مارتا») و «الأخوات» الناسكات (adelphai) يقمن بخدمته وبالتعبّد له في «بيت النسّاك» الذي كان الدّير الخاصّ به.

والواقع هو أنّ «لَعازر» (في التهجئة اليونانيّة Lazaros، ومن دون لاحقة المذكّر Lazar) هو ذاته الاسم المذكور في «العهد

القديم» على شكل «أَليعازر» (في التهجئة العبريّة: ء ل ي ع ز ر). والاسم هذا مطابق لاسم الإله «آل يعذر» (ء ل ي ع ذ ر) أو «آل عذر» (ء ل ع ذ ر) الوارد في النقوش الثموديّة التي عثر عليها بشمال الحجاز، هو واسم الإله «عس» الذي ربمّا هو اسم عيسى باعتباره إلهاً، كما سبق. و «العَذْر» بالعربيّة هو «العذريّة،» وهو أيضاً «الختان» الذي يفترض كونه في الأصل طقساً من طقوس البلوغ عند الذكور، يعدّهم للخروج من «عذريّة» الصبا إلى الرّجولة الكاملة، فالزواج. ونظراً إلى ذلك، فلعلّ الإله «يعذر» أو «عذر،» الذي هو في القصّة التي نحن بصددها «لَعازر،» كان في جملة آلهة الخصوبة، مثله مثل عيسى عند هؤلاء الذين كانوا يؤلّهونه. بل إنّه كان صديقاً «حبيباً» للإله عيسى، معاوناً له في إخصاب الذكور. وكان يُروى عن الإله «يعذر» أنّه حدث له مرّة أنْ مات، فسارع الإله عيسى إلى إعادته إلى الحياة ليستمرّ في معاونته. وهذه هي القصّة، كما يمكن استخراجها من النصّ المركّب لإنجيل يوحنّا الذي يتحدّث، أصلاً، عن فرار يسوع من أورشليم إلى «عبر الأردن،» ثمّ عن قراره بالعودة إلى المدينة:

> كان إنسان مريضاً، وهو لَعازر، من بيت النسّاك (بالأراميّة «بيت عنوايا».) فأرسلت الأخوات [النّاسكات] إلى [عيسى] قائلات: «يا سيّد، هوّذا الذي تحبّه مريض.» وكان عيسى يحبّ لَعازر. قال: «لَعازر حبيبنا قد نام، لكنّي أَذهب لأوقظه. لَعازر مات، ولكنْ لنذهب إليه.» فلمّا أتى عيسى وجد أنّه قد صار

> له أربعة أيّام في القبر. فقالت الرئيسة (بالأراميّة «مارتا») لعيسى: «ياسيّد، لو كنت هنا لم يمت. قال لها عيسى: «سيقوم. أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا، وكلّ من كان حيّاً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد. أتؤمنين بهذا؟» قالت له: «نعم يا سيّد، قد آمنت.» وجاء إلى القبر، وكان مغارة، وقد وضع عليه حجر.» قال عيسى: «ارفعوا الحجر.» قالت له الرئيسة: «يا سيّد قد أنتن، لأنّ له أربعة أيّام.» قال لها عيسى: «ألم أقُلْ لكِ، إنْ آمنتِ تَرَيْنَ مجدَ اللّه؟» ولمّا قال هذا صرخ بصوت عظيم: «لَعازر، هلمّ خارجاً!» فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة، ووجهه ملفوف بمنديل. فقال لهم عيسى: «حلّوه ودعوه يذهب.» فصنعوا له هناك عشاءً، وكانت الرئيسة تخدم، ولَعازر بين المتّكئين.

ولابدّ من تعليق حول أُلوهيّة الخصوبة التي نسبت إلى عيسى ابن مريم على أساس كونه الإله «عس»» وذلك بناءً على مقطع من إنجيل يوحنّا (٥:١٧–٣٦) يَنسب إلى Iesous الكلام الآتي، بصفته إلهاً يضمن «الحياة الأبديّة» للبشر:

> أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل.... لا يقدر [اللّه] الابن أنْ يعمل من نفسه شيئاً إلاّ ما يَنْظُر [اللّه] الآب يعمل. لأنّ مهما عمل ذاك فهذا يعمله [اللّه] الإبن كذلك. لأنّ [اللّه]

> الآب يحبّ [اللّه] الابن ويُريه جميع ما هو يعمله.... لأنّه كما أنّ [اللّه] الآب يقيم الأموات ويُحْيي، كذلك [اللّه] الابن أيضاً يُحيي من يشاء. لأنّ [اللّه] الآب لا يَدِينُ أحداً بل قد أَعطى كل الدّينونة [للّه] الابن، لكي يُكرِم الجميع [اللّه] الابن كما يُكرِمون [اللّه] الآب. مَنْ لا يُكرِم [اللّه] الابن لا يُكرِم [اللّه] الآب الذي أرسله.... مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبديّة، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.... لأنّه كما أنّ [اللّه] الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى [اللّه] الابن أيضاً أنْ تكون له حياة في ذاته، وأعطاه سلطاناً أنْ يَدِين، أيضا، لأنّه ابن الإنسان.... أنا لا أقدر أنْ أفعل من نفسي شيئاً.... لا أطلب مشيئتي بل مشيئة [اللّه] الآب الذي أرسلني.... الأعمال التي أعطاني [اللّه] الآب لأُكمّلها – هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أنّ [اللّه] الآب قد أرسلني....

والذي يتبيّن من هذا الكلام أنّ ذلك الفريق من الإسرائيليّين الذي أَلَّهَ عيسى لم يعتبره الإله «الآب» الخالق للكون أصلاً، بل «ابناً» لهذا الإله، منبثقاً منه وعاملاً بمشيئته. فوصفه بأنّه ليس اللّه «الابن» ابن اللّه «الآب» فحسب، بل أيضاً «ابن الإنسان.» وما هذا الوصف إلاّ نسيج باطنيّ حول ما ورد في سفر النبيّ دانيال، وهو من الأسفار الباطنيّة أصلاً من «العهد القديم،» بشأن علاقة ما يسمّيه (في

الترجمة العربيّة) «ابن الإنسان» بـ «القديم الأيّام» (دانيال ١٣:٧):

> كُنْتُ أرى في رؤى اللّيل، وإذا مع سُحُب السماء [ظهر] مثل ابن إنسان (بالأراميّة «بَرْ إناش») أتى وجاء إلى القديم الأيّام (بالأراميّة «عَتّيق يومَيًّا»). فقرّبوه قدّامه. فأُعطي سُلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبّد له كلّ الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبديّ ما لَنْ يزول، وملكوته ما لا ينقرض.

والمُلاحَظ من النصّ الذي وصلنا من حديث النبيّ دانيال عن «عَتّيق يومَيّا» أنّ الاسم ذُكر أصلاً بشكل آخر هو «عَتّيق يُومِين» (دانيال ٩:٧). ثمّ جاء من غيّر الاسم إلى «عَتّيق يومَيّا» (دانيال ١٣:٧، ٢٢) حتّى يجعله يعني «قديم الأيّام،» ظنّاً منه بأنّ هذا هو معنى الاسم. نظراً إلى أنّ «يُومِين» ليست صيغة الجمع الأراميّة المألوفة للفظة «يُوم،» بمعنى اليوم. وفي وصف مشاهدته لِـ «عَتّيق يُومِين،» يقول النبيّ دانيال (٩:٧، مع الإبقاء على أصل اسم «عَتّيق يُومِين»):

> كُنْت أرى أنّه وُضِعَت عُروش، وجلس عَتّيق يُومِين. لباسه أبيض كالثلج، وشعر رأسه كالصّوف النقيّ، وعرشه لهيب نار، وبكراتُهُ نارٌ متّقدة. نهر نارٍ جرى وخرج من قُدّامه. ألوفُ أُلوفٍ تخدمه، وربواتُ ربواتٍ وقوفٌ قدّامه.

واجتهادي بشأن «عَتّيق يُومِين» هو كونه في الأصل الإله «يمن» (من دون تصويت)، وهو الذي اعتبره المصريّون القدماء ملك الآلهة، ووالِد الإله الشاب «خنس» (من دون تصويت). و«يمن» هو ذاته الإله «أمون،» حسب التصويت العربي المألوف حاليّاً لاسمه، وهو المأخوذ عن التسمية اليونانيّة له. ولعلّ المصريّين القدماء أخذوا عبادة «يمن» أصلاً عن أهل «اليمن،» أي «الجنوب» من الجزيرة العربيّة، ومن ذلك اسمُه. والأصنام المصريّة لهذا الإلّه تصوّره إمّا على شكل إنسان له رأس كبش من الغنم، أو على شكل كبش (قابل مع وصف دانيال لِـ «عَتّيق يُومِين» بكون «شعر رأسه كالصّوف النقي»؛ وما الصّوف إلاّ من الغنم). ولا بدّ من أنّ «يمن،» بصفته ملك الآلهة، كان يعتبر أقدمَها، ومن ذلك وصفه في الأراميّة بأنّه «عَتّيق،» أي «قديم.» بل لعلّه كان يُعرف أيضاً في الجزيرة العربيّة باسم «عَتِّيق.» ومن هذين الاسمين للإله ذاته اسم قريتَي «آل عَتيق» (أي «الإله عَتّيق،» بتعريب الاسم)، واحدة بناحية خميس مشيط، والثانية بناحية ظهران الجنوب القريبة من حدود اليمن، واسم قرية «ذات يُومِين» (أي «الإله يُومِين») من بلاد بني شِهْر بعسير.

وبذلك أرى أنّ القول في يسوع بأنّه اللّه «الابن» المنبثق من اللّه «الآب» والعامل بمشيئته، وهو الذي يستند أكثر ما يكون إلى ما يرد في إنجيل يوحنّا ورسائل بولس بهذا الشأن، هو قول له جذور تعود إلى أقدم عصور التاريخ، إنْ لم يكن إلى ما قبل.

١٢

العشاء الأخير

يروي إنجيل يوحنّا قصّة عشاء يسوع الأخير مع تلاميذه على الوجه الآتي (يوحنّا ١٣: ١ –٣٥، ثمّ ١٨: ١):

يسوع قبل عيد الفصح عالمٌ أنّ ساعته قد جاءت.... فحين كان العشاء...، قام عن العشاء، وخلع ثيابه، وأخذ منشفة واتّزر بها. ثمّ صبّ ماءً في مِغْسَل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان متّزراً بها.... فلمّا كان قد غسل أرجلهم، وأخذ ثيابه، واتّكأ أيضاً، قال لهم: «أتفهمون ما قد صنعت بكم؟ أنتم تدعونني معلّماً وسيّداً، وحسناً تقولون، لأنّي أنا كذلك. فإنْ كنت، وأنا السيّد والمعلّم، قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أنْ يغسل بعضكم أرجل بعض. لأنّي أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعت أنا بكم

> تصنعون أنتم أيضاً».... فلما خرج قال....:
> «أنا معكم زماناً قليلاً بعد.... وصيّة جديدة أُعطيكم، أنْ تحبّوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا تحبّون أنتم بعضكم بعضاً. بهذا يعرف الجميع أنّكم تلاميذي، إنْ كان لكم حبٌّ بعضاً لبعض».... قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون حيث كان بستان دخله وتلاميذه....

ولعلّ شهادة يوحنّا بشأن «العشاء الأخير» ليسوع مع تلاميذه هي الشهادة الوحيدة الحيّة لهذا الحدث. علماً بأنّ يوحنّا كان لا يزال على قيد الحياة عندما اكتمل الإنجيل المنسوب إلى اسمه. وهو الإنجيل الذي وَضَعَ له يوحنّا النصّ الأصليّ على الأرجح، كما سبق، ثمّ جاء بعد ذلك من حرّره وأضاف إليه ما أضاف.

وبولس الذي لم يكن من تلاميذ يسوع، ورُبمّا لم يلتق به مرّة واحدة في حياته، لم يكن في جملة الذين اشتركوا معه في «العشاء الأخير» وهو الذي يُشير إليه بولس باسم «عشاء الربّ» (كورنثوس ١١:٢٠). بل جُلّ ما حصل، بالنسبة إلى بولس، هو أنّ يسوع ظهر له في رؤيا، كما ظهر لغيره من الرّسل، منفردين أو مجتمعين (١ كورنثوس ١٥:٣-٨)، فكان عن طريق هذه الرؤيا أنْ عَلِّمَ بولس عن «عشاء الربّ» ما يأتي (١ كورنثوس ١١:٢٣-٢٥):

> تسلّمت من الربّ ما سلّمتكم أيضاً: أنّ الربّ يسوع، في اللّيلة التي أُسْلِمَ فيها أخذ خُبزاً وشكَرَ، فكسر وقال: «.... هذا هو جسدي المكسور

لأجلكم. اصنعوا هذا لذكري. كذلك الكأس أيضاً،
بعد ما تعشّوا، قائلاً: «هذه الكأس هي العهد
الجديد بدمي. اصنعوا هذا كلّما شربتم لذكري.

وقد سبقت الملاحظة بأنّ الأناجيل الأربعة من «العهد الجديد» وُضعت جميعها بعد زمن بولس. وجميعها متأثّر بمقولة بولس في يسوع. ومن بين هذه الأناجيل الأربعة تلك المسمّاة «المتناسقة» (مرقس، ومتّى، ولوقا) التي أخذت تعليمه بشأن ما فعل يسوع بالخبز والكأس في «عشاء الربّ،» فأدخلت هذا التعليم على قصّة «العشاء الأخير.» وإنجيل يوحنّا هو وحده الذي لم يفعل ذلك.

نبتدىء بما يقوله إنجيل مرقس – وهو أقدم «الأناجيل المتناسقة» – عن «العشاء الأخير» (مرقس ١٤:٢٢–٢٥):

وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً، وبارك،
وكسّر، وأعطاهم وقال: «خذوا كُلوا، هذا هو
جسدي.» ثمّ أخذ الكأس، وشكَرَ، وأعطاهم،
فشربوا منها كلّهم. وقال لهم: «هذا هو دمي
الذي للعهد الجديد، الذي يُسفَك من أجل
كثيرين. الحقّ أقول لكم إنّي لا أشرب بعد من
نتاج الكرمة إلى ذلك اليوم حينما أشربه
جديداً في ملكوت اللّه.»

وإنجيل متّى نقل هذه الرواية عن إنجيل مرقس، وبالكلمات ذاتها تقريباً، إذ قال (متّى ٢٦: ٢٦–٢٩):

> وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز، وبارك، وكسَّر، وأعطى التلاميذ وقال: «خذوا كُلوا، هذا هو جسدي.» وأخذ الكأس، وشكَرَ، وأعطاهم قائلاً: «اشربوا منها كُلُّكم، لأنّ هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفَك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا. وأقول لكم إنيّ من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي.»

وإنجيل لوقا، هو أيضاً، ينقل قصّة «العشاء الأخير» عن إنجيل مرقس مع بعض الإضافات في التفصيل، فيما عدا مقطع واحد يبدو متناسقاً مع ما يقوله إنجيل يوحنّا بشأن هذا الحدث (لوقا ٢٢:١٤–٢٧):

> ولمّا كانت السّاعة، اتّكأ والاثنا عشر رسولاً معه. وقال لهم: «شهوة اشتهيت أنْ آكل هذا الفصح معكم قبل أنْ أتألّم. لأنّي أقول لكم إنيّ لا آكل منه بعد حتى يُكْمَل في ملكوت اللّه.» ثمّ تناول كأساً، وشكَرَ، وقال: «خذوا هذه واقتسموها بينكم، لأنّي أقول لكم إنّي لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتي ملكوت اللّه.» وأخذ خبزاً وشكَرَ، وكَسَّر، وأعطاهم قائلاً: «هذا هو جسدي الذي يُبذل عنكم. اصنعوا هذا لذكري.» وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً: «هذه الكأس هي العهد

> الجديد بدمي الذي يُسفك عنكم....» وكانت بينهم أيضاً مشاجرة مَنْ منهم يَظُنّ أنّه يكون أكبر. فقال لهم: «ملوك الأمم يسودونهم، والمتسلّطون عليهم يُدْعَون محسنين. وأمّا أنتم فليس هكذا. بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمتقدّم كالخادم. لأنّ من هو أكبر، الذي يتّكئ أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتّكئ؟ ولكنّي أنا بينكم كالذي يخدم....»

ولا يوجد في «العهد الجديد» ما يشير إلى أنّ تلاميذ يسوع، وأتباعهم الأوائل من «شيعة النصّارى» بأورشليم، كانوا يقومون بشعائر «العشاء الأخير» أو «عشاء الربّ» التي أوصاهم يسوع بها، على ما تقوله الأناجيل الثلاثة «المتناسقة.» بل جُلّ ما يقوله سفر أعمال الرُّسل عن الرُّسل الأوائل وأتباعهم في أورشليم هو الآتي (٢:٤٤-٤٧):

> جميع الذين آمنوا كانوا معاً، وكان عندهم كلُّ شيء مشتركاً. والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع، كما يكون لكلّ واحد احتياج. وكانوا كلّ يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة. وإذ هم يكسرون الخبز (أي يأكلون) في البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب، مسبّحين اللّه، ولهم نعمة لدى جميع الشعب....

بل إنّ الواضح من كلام بولس نفسه في رسالته الأولى إلى أهل

كورنثوس أنّ الاشتراك في تناول الخبز والخمر، كناية عن جسد يسوع ودمه الذي سُفك على الصليب، هو تعليم تسلّمه بولس من يسوع عن طريق رؤيا خاصّة به. ولو كان تلاميذ يسوع أخذوا هذا التعليم عن يسوع من قبل، لكان بولس أخذه عنهم، بدلاً من أنْ يأخذ الأمر باتّباعه على عاتقه. لكنْ، لماذا أخذ مرقس ومتّى ولوقا هذا التعليم عن لسان بولس، فأدرجوه في جملة كلامهم عن «العشاء الأخير»؟ ولماذا لم يفعل يوحنّا ذلك، بل وصف ما فعل وقال يسوع في «العشاء الأخير» بشكل مخالف لذلك تماماً؟

كان يوحنّا - هو وأخوه الأكبر يعقوب - على خلاف مع سمعان بطرس. ولعلّ هذا الخلاف وصل إلى حدّ الشجار المفتوح بين الفريقين عندما تبيّن لهما أنّ نهاية يسوع قد دنت، فصار كلّ منهما يطمح بخلافته، وهي التي ذهبت في بداية الأمر إلى يعقوب أخي يوحنّا. ثمّ قُتل يعقوب، واستُبعد يوحنّا عن قيادة أتباع يسوع بعد مقتل أخيه لسنوات عدّة، كما سبق، وصارت قيادة «شيعة النّصارى» ليعقوب أخي يسوع، يشاركه فيها سمعان بطرس، وللثاني منهما كلمة الفصل. فلمّا كتب يوحنّا إنجيله، روى فيه كيف أنّ يسوع، في العشاء الأخير الذي تناوله مع تلاميذه، قام - وهو «المعلّم» و «السيّد» - بغسل أرجلهم، ليعطيهم بذلك المثال على كيف يتصرّف بعضهم تجاه بعض من بعده، فلا يكون بينهم صغير وكبير. ولعلّ هذا هو ما حصل فعلاً في «العشاء الأخير» وهو ما يشير إليه لوقا حيث يتحدّث عن «المشاجرة» التي قامت بين تلاميذ يسوع في هذه المناسبة، ممّا اضطرَّ يسوع إلى التدخّل لحسم الأمر قائلاً: «بل الكبير منكم ليكن كالأصغر».

أما إنجيلا مرقس ومتّى – وهما الإنجيلان المؤيّدان لسمعان بطرس، كما سبق– فأقلعا عن ذكر الخلاف على التقدّم بينه وبين يعقوب وأخيه يوحنّا، وهو الذي لم يكن في صالح سمعان بطرس. ولذلك لم يأتِ أيٌّ من الإنجيلين على ذكر غسل يسوع لأرجل تلاميذه بمناسبة عشائه الأخير معهم، حتّى لا يأتوا على ذكر «المشاجرة» التي حصلت حول من هو «الصغير» ومن هو «الكبير» بينهم. وبدلاً من ذكر ذلك، لجأ الإنجيلان إلى تعليم بولس بشأن الاشتراك في تناول الخبز والخمر كنايةً عن جسد يسوع ودمه، فجعلا من هذا التعليم محور «العشاء الأخير.» وهو ما فعله لوقا أيضاً، وإنْ هو أشار إلى «المشاجرة» في العشاء الأخير حول من هو الكبير ومن هو الصغير بين التلاميذ، وما قاله يسوع بهذا الشأن في تلك المناسبة.

١٣

الواقع والصّورة

لاخلاف بين أهل الاختصاص في دراسة الأناجيل الأربعة من «العهد الجديد» على كون المادة فيها مركبّة من عناصر مختلفة، منها ما كُتب أصلاً باليونانيّة، ومنها ما نُقل إلى اليونانيّة عن أصول أو مصادر أراميّة. ولا خلاف، أيضاً، بأنّ التعاليم المنسوبة إلى يسوع في هذه الأناجيل ليست بالضرورة من تعاليمه، بل منها ما هو أقوال وأمثال نُقلت إلى اليونانيّة عن التراث الشعبي الأراميّ القديم. ولذلك، فالأسس النقديّة التي ارتكز إليها البحث في هذا الكتاب ليس فيها من جديد من ناحية المبدأ.

أمّا الجديد الذي توصّلنا إليه عن طريق جولتنا في نصوص الأناجيل، متنقّلين من الواحد إلى الآخر، فيتعلّق بالطريقة التي مزجت فيها هذه الأناجيل بين شخصيّة يسوع النّاصري (بالتهجئة اليونانيّة Iesous) من جهة، وشخصية عيسى ابن مريم (بالتهجئة اليونانيّة أيضا Iesous) الذي كان في زمانه نبيّاً إسرائيليّاً، ثُمّ

صار بعض أتباعه يعتبرونه إلهاً، على ما هو معروف عنه من القرآن. وكان عن طريق هذا المزيج بين الشخصيّتين المختلفتين أصلاً، أنْ أطلقت ثلاثة من الأناجيل - وليس الرابع منها - اسم مريم والدة عيسى على والدة يسوع التي تبقى غير معروفة الاسم. وفي القرآن أنّ من النّصارى من لم يؤلّه عيسى وحده، بل اعتبره هو وأمَّه مريم إلهين (المائدة: ١١٦). وقد نجتهد فنقول: لعلّ الاعتقاد بين عامّة النّصارى بكون مريم «الإلهة الأُمّ» فرض نفسه على المسيحيّة «الرّسوليّة» التي انتهت إلى تبنّي هذا الاعتقاد. فكان من ذلك أنْ جرى تعريف مريم في المعتقد المسيحي، وفي زمن ما بعد وفاة الرّسول بولس، بأنّها هي ذاتها والدة يسوع الذي هو «اللّه الابن،» وأنّها من ثَمّ السيّدة العذراء المستوجبة الإجلال كونها «أُمَّ اللّه.»

أمّا بالنسبة إلى يسوع، فالذي تبيّن لنا عنه بوضوح هو الآتي:

كان يسوع ابن يوسف النجّار المعروف «بالنّاصري» أميراً من بيت داود اقتدى بجدّ له اسمه زَرُبّابل، فحاول الوصول إلى المُلك على إسرائيل، منفقاً على مسعاه ما كان قد ورثه عن أبيه من مال. ومن الإسرائيليين في زمانه، من غير اليهود، من كان لا يزال ينتظر ظهور «مسيح» من بيت داود يعيد المُلك إلى الشعب الإسرائيلي في شتاته، فاعترف بيسوع على كونه ذلك المسيح، وهبّ لنصرته. لكنّ مُطالبة يسوع بعرش إسرائيل - وهي التي حدثت في «اليهوديّة» بفلسطين في زمن الرّومان - اصطدمت بمقاومة شديدة من المؤسّسة الكهنوتيّة اليهوديّة، وهي المؤسّسة ذاتها التي سبق لها أنْ تصدّت لمسعى جدّه

زَرُبّـابل إلى المُلك علـى إسرائيل قبل خمسة قرون تقريبـاً، فـأفشلتـه بطريقة أو أخرى.

وحـاول الكهنوت اليهوديّ أنْ يردع يسوع عن مسعاه في البداية عن طريق التهديد والوعيد، فلم يرتدع. وكـانت نـهاية الأمر أنْ قُبض عليه، واقتيد أمام رئيس كهنة اليهود في أورشليم للمحاكمة على أساس ادّعائـه بأنّـه المسيـح الداودي المنتظر، وليس على أيّ أساسٍ آخر. فحُكم عليـه بالمـوت، ثمّ سُلّـم إلى السلطـات الرومـانيـّة لتنفيذ هذا الحكم عليه صلباً.

ومن الأنصار المقرّبين إلى يسوع من شهد على كونه قد ظهر له حيّاً بعد موتـه ودفنـه، فساد القول بين الجماعة الإسرائيليّة الموالية له بأنّه قام من القبر. ثم صار يُقال بأنّ يسوع صعد إلى السماء حيّاً بعد قيامته، واعداً بأنْ يعود إلى العالم منتصراً عندما يحين الوقت لذلك. وهذا ما كان يقوله النّصارى أصلاً عن عيسى ابن مريم (أنظر ص ١١٧)، فصار فريق منهم ينسب ذلك إلى يسوع، على ما يبدو، بحيث تماهى لديهم شخص الواحد بالآخر.

وأيّاً كانت حقيقة الأمر بهذا الشأن، فالواضح أنّ النّصارى من أتباع يسوع بأورشليم، انتظموا من بعده في «كنيسة» (باليونانيّة ekklesia أي «تجمّـع») سرعان ما أصبحت رئاستها حِكراً على أهل بيته، ابتداءً بأخيه يعقوب. ولم يختلف أتباع هذه الكنيسة عن اليهود إلاّ من حيث انتظارهم لعودة يسوع إلى العالم مسيحاً منتصرا، فيكتمل خلاص بنى إسرائيل بمجيئه الثاني. وفي ما عدا ذلك، بقيت هذه الكنيسة تصرّ على أتّباع شريعة موسى بكامل حذافيرها، بما في ذلك فرض الختان على كلّ راغب في الالتحاق بها من غير الإسرائيليّين. ومن ذلك جاءت تسمية هذه الكنيسة بـ «كنيسة الختان.»

وكانت هذه الكنيسة الأورشليميّة الأولى في بداية أمرها بعد عندما بدأ بولس تبشيره بيسوع بين الأمم غير الإسرائيليّة الأصل في مختلف أرجاء العالم الرّوماني. وكان بولس في الأصل يهوديّاً، بل ومن المتقدّمين في الديانة اليهوديّة، ومن المضطهِدين لأتباع كنيسة أورشليم، عندما تبيّن له بأنّ يسوع النّاصري الذي مات معلّقاً على الصليب لم يكن محض أمير من بيت داود حاول الوصول إلى العرش الإسرائيلي الذي كان لجدّه، فخسر رهانه، بل ابناً للّه – أي أنّه إلهٌ أزلي من إلهٍ أزليّ – صار إنساناً ومات على الصليب ليفتدي البشريّة جمعاء.

هذه الصورة ليسوع تبيّنت لبولس يقيناً عن طريق رؤيا خاصّة به، لم يفصح تماماً عن طبيعتها في الرّسائل التي كتبها إلى أتباعه. وكان عن طريق تبشير بولس بالصّورة التي ارتسمت في ذهنه عن يسوع أنْ أصبحت هذه الصّورة الأساس للعقيدة الميسحيّة كما هي قائمة إلى اليوم. ولعلّ في هذه العقيدة بيسوع، وكذلك في العقيدة المسيحيّة بمريم، ما هو أبلغ بكثير من الواقع.

الفهرس العام

الفهرس العام

- ث -

- ج -

- ح -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ظ -

- ع -

- غ -

- ف -

- ل -

- ن -

- هـ -

هذا الكتاب

من هو يسوع النّاصري؟ ومن هم تلاميذه وأتباعه الأوائل؟
وما هي طبيعة دعوته في الأصل؟
ما هي الأناجيل؟ وما هي المصادر التي اعتمدت في كتابتها؟
ولماذا يوجد تناقض بين الإنجيل والآخر أحياناً
في رواية الأخبار عن يسوع؟
من هو الرّسول بولس الذي وضع الأسس للعقيدة المسيحيّة
في يسوع كما هي قائمة إلى اليوم؟
وهل كانت مقولته هي ذاتها التي كانت لأتباع يسوع منذ البداية؟
هذه الأسئلة هي في جملة ما يشكّل اللغز التاريخي
بشأن يسوع. وفي هذا الكتاب محاولة غير مسبوقة المثل
لحلّ هذا اللغز عن طريق قراءة جديدة في نصوص الأناجيل
تفصل بين موادها المتنوّعة، فتعالج كلّ مادة على حدة
بموضوعيّة كاملة، في محاولة من المؤلّف
للوصول إلى الحقيقة.

كمال الصّليبي

أستاذ شرف في كليّة الآداب والعلوم، الجامعة الأميركيّة في بيروت.
درس اللغات الساميّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت،
وتخصّص في قراءة النّصوص التاريخيّة في جامعة لندن.
مؤلفاته الصادرة بالعربيّة في موضوع «الكتاب المقدّس» هي:
«التوراة جاءت من جزيرة العرب»،
و «خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل» و «حروب داود».

دار الشروق للنشر والتوزيع
عمان: هاتف: ٤٦١٨١٩٠ ـ فاكس: ٤٦١٠٠٦٥
رام الله ـ المنارة ـ تلفاكس: ٢٩٨٧-٣٢
ردمك ISBN9957-00-079-9